الهجرة من المستنقع

تأليف

د. إيهاب سلاّم

دار قبـــاء للطباعة

الكتـــــاب : الهجرة من المستنقع

المؤلـــــف : د. إيهاب سلام

تاريخ النشر : ٢٠٠٠م

رقـم الإيـــداع : ٩٩/١٠٩٦٦

الترقيــم الدولى : ISBN

977-303-185-3

الفصل الأول
ملك اللعب كله

قلبه ملآن بالغثيان ، وهو يخترق الطريق من شارع محمد علي إلى ميدان الأوبرا .. آه يا أوبرا احترقت ، ولم تقم لك قائمة ! .. وقد أحترق هو الآخر ، بيد أنه يختلف عنها . لقد احترقت نفسه منذ زمن ، غير أنه تمكن أن يكوّن له كيان من جديد . ، وحتى يبلغ المكانة المرموقة جمع بين المتناقضين في قبضة واحدة . مشى في طريقي الخير والشر معاً . ولكنه الآن يريد أن يفلت من طريق الرذيلة إلى الأبد . غير أن حبالاً تشده إليه بقوة ، وهو يقاومها ، ولا يتمكن من قطعها .. يريد أن يقضي على دابر الفساد قبل أن يغادر أرضه التي ينبت فيها الحنظل .

ذاهب الآن إلى نادي الميسر السري .. في إحدى العمارات ذات اللافتات العادية ، والتي تخفي في جوفها هذا النادي . الباب مفتوح لمن يدخل . لن يجد غير محل ترزي نساء ورجال . والترزي في بعض الأحيان يقف يستقبل الزبائن . يصافحهم في حرارة . وهو يقيس لمن يقيس . ويشذب لمن جاء ليشذب بنطلونه ، كأن ليس في داخل الحجرات ماخور فاسد . يسأل :

– البروفة جاهزة .

– تفضل . كلمة واحدة تعني الكثير . ويدخل من باب مغلق إلى دهليز أنواره خافتة . ويدلف إلى حجرة مليئة بالمقاعد الفخمة

الوثيرة المريحة . والترزي الكبير قد يكون جالساً أو يلحق به وكان في ذلك اليوم جالس إلى مكتب بديع الصنع . " أنت تجلس فقط . ليس لك عمل إلا أن تقبض .. من الزبائن ، وهذا عمل شريف . ومن العملاء وهذا عمل خسيس . جاء الوقت لأدعوك لوقف نشاطك السئ إلى الأبد ."

لا ينسي أن يغلق الباب خلفه ويغلق الباب بإحكام من تلقاء نفسه . ولا يفتح إلا إذا ضغط الكبير على زر متين في مكتبه ، وهو يرى الزائر على شاشة واضحة .

- مساء الخير .

- أهلاً .. شوقي !! ..

يفتح باب من الداخل ويخرج منه عجوز يتطاير الشعر الأبيض الخفيف على صلعة واضحة للعيان . بقايا شعر أبيض متناثر على رأس صغير : " مثل هذا الرأس تدل على أن صاحبها يملك ذكاء عادياً . هكذا قال علم الفراسة . " ينتحب الرجل ويمسح دموعه في منديل أجرب يكاد يكون بالياً من فرط الاستعمال .

يبادر الترزي الكبير قائلاً :

- ما هناك ؟ ..

ينشج بالبكاء . ويترنح ساقطاً على كرسي مبطن بالجلد الناعم . وهو يقول بين شهقة وأخرى :

- خسرت .. كل .. نقودي .

"خسرت لأنـك لا ذكـاء لـك . لا تعـرف شـيئاً فـي حسـاب الاحتمالات . لو عرفت سيرتي الأولى لدهشت . أنا لم أدخـل إلـى المائدة الخضراء إلا وفي جيبي سلاح اسمه علم الاحتمالات ."

يسأل الترزي الكبير :

– كم خسرت اليوم ؟ ..

وبين شهقات البكاء يقول بأسف :

– عشرة آلاف ..

يقول الترزي مخففاً :

– أنت تخسر كل ...

يقاطعه شوقي متسائلاً :

– كم معك الآن ؟

– ينظر إليه ، والدموع تخضب جفنيه ، وبيـاض عينيـه تحـول إلى لون قاني :

– مائة جنيه فقط .

يقول الترزي :

– سلمها له .. وسوف يعيد إليك ما خسـرته . إنـه ملـك اللعب كله .

يتأمله بخوف ، ويستخرج النقود من جيبه ببطء . ويسلمها له في ذل . ويأخذها ويدخل من باب آخر إلى الحجرة الداخلية . يحاول العجوز أن يلحق به ، غير أنه يصده بحزم . " في مثل هذه الحالات يجب أن أكون صارماً .

يواجه دخان السجائر يملأ المكان كسحب شديدة البياض تغطي الأركان الأربعة . سحب بيضاء لا تنذر بمطر وإن كانت تنذر باختناق الأنفاس . مناضد خضراء . وكل مائدة يلعب عليها خمس لاعبون فيما عدا واحدة . يتقدم فريد من أحد الموائد يجلس إليها سيدتان ورجلان . تنهض واحدة وهى تقول :

– جاء الخطير .. فلابد أن أمضي .

يبادرها شوقي قائلاً :

– يبدو أنك كسبت كثيراً يا أزهار ..

– لا تحسدني . يقول واحد من الجالسين ، والحسد يتراقص في عينيه :

– ليس من حقك أن تبرحي المكان لأننا خاسرون .

تقول وهى تمتص رحيق سيجارتها الحارق :

– سوف يحل بدلاً مني شوقي .

تقول زميلتها

– أنت تخشين شوقي يا أزهار .

ترد أزهار قائلة :

– هذا ليس إنساناً يا عبير .. هذا حاسب آلي !! ..

تفيض ابتسامة صفراء على وجه شوقي . وهو يتسلم مقعدها وينثر مائة جنيه على المائدة . ووجوه الجالسين بالية صفراء . أياديهم مرتعشة غير مستقرة . نظرات القلق في عيونهم تطل كنظرات قطط خائفة . تبدو عبير هي الوحيدة الثابتة رابطة

الجأش ." هدوء الأعصاب ليس له صلة بعلم الاحتمالات ، ولكن الثقة بالاحتمالات هي التي تبث الهدوء في الأعصاب . "

يوزع الورق . ينتهي الدور . وتتحول المائة جنيه إلى ثلاثمائة جنيه بعد انسحاب عبير من الدور . " ليس في كل مرة يمكن أن يكون الدور في صالحك . حذار من الخطأ في الحساب . " . ينتظر أن تقوم عبير بتوزيع الأوراق للدور التالي . ويتأمل ذلك العمدة الذي يجلس بجانبه على الطرف الآخر . " . باع القطن . وجاء يبيع المال بالهواء . بدين كأنه أختزن أكل عام في جوفه يجتره على مهل ." يليه ذلك الرجل الوقور صاحب الياقة المنشاة والرداء الفخم ، وجهه مغضن وجسده نحيل . " يقضى حياته أمام المائدة يخسر ويكسب . حياته متعادلة بين الخسارة والمكسب . يبدو أنه يجد لذة في الميسر تنسيه أشياء مختلفة في حياته . "

شعر بالغثيان يملأ جوفه . " ألم تأخذ العهد على نفسك أن تطلق هذه الحياة الكئيبة . جئت فقط لأنذر الترزي بأن يقلع عن تلك الحياة ، ولولا هذا البائس ما دخلت مرة أخرى وجلست على هذه المائدة . إن عمل الخير في نطاق مستعمرات الشر عمل طيب ، مثلما تمتص بؤرة بترولية خطرة تهدد حياة الأسماك في بحر متلاطم ."

يسأل شوقي بهدوء :

– رأيت في الخارج عجوزاً يبكي .. خسر عشرة آلاف جنيه .. على أي مائدة خسر ؟ ..

تقول عبير :
- على هذه المائدة . حصلت أزهار على الجزء الأكبر منها .
كانت أزهار تدخن سيجارتها وهى تجلس على كرسي جلد وثير . وهى تسمع عبير تتكلم . تهاجمها قائلة في غضب :
- نقي .. نقي يا أختي .
يتأمل شوقي المائدة . يري الرجل الثاني ساكتاً لا يتكلم . في عينيه حذر ، وأمامه رصيد يقرب من الألف . رصيد العمدة مرتفع كأنه لا يتحدى هذه المرة لكنه لا يكفي لاسترداد الآلاف التي خسرها العجوز . " من المؤكد يا عمدة أنك سوف تخسر هذه المرة وتعود حسيراً . " ينتهي الدور وينسحب شوقي منه ويخسر قليلاً . وتذهب النقود إلى الرجل الرصين ذي الياقة المنشاة . " لا بد من مرور عدة أدوار حتى تتمكن أن تحتفظ ذاكرتي الحديدية بترتيب الورق . العبرة هي الاستفادة بالورق ، ولكن لا يمكن لإرادة تحديد اتجاهه بالضبط . "
ينصرف الرجل ذو الحظ المتوازن . وتتجرأ أزهار على خوض المعركة وتدخل الحلبة . تحثها عبير قائلة :
- لا تخافي منه . إنه شخص عادي للغاية يا أزهار .
يتأملها شوقي بإمعان ، وأزهار تقول :
- أنت لا تعرفينه .
تصاحب الخسارة أزهار وتعلق على حظها :

– ذلك ما جئت به لنفسي يا عبير . الطمع يقل ما جمع .
علامات الفرج تتراقص على وجه العمدة . " لا تهنأ كثيراً .
سوف تسقط إن عاجلاً وإن آجلاً " .

تباشير الصبح تسرق جزءاً من الظلام الخارجي ، وتتسلل من الستائر غير المحكمة والمقفل بعضها إلى منتصفه لعلة فيها .
نسمة الصباح لا تستطيع أن تنفذ من الزجاج المغلق . الزجاج يقف حائلاً تسانده كثافة الدخان الخانقة .

" يقتلون أنفسهم لا شك . دخان كثيف . توتر أعصاب . نقود تذهب إلى أيدي ملوك اللعب . "

***

يفتح شوقي الباب ، والعجوز البائس قد أغمض عينيه في كفيه . يرفع رأسه ، وجفناه لا يزالان مخضبين بالدموع . ينهض فزعاً حينما يري شوقي خارجاً من الحجرة المغلقة .

– هل ضاعت المائة جنيه الباقية ؟

يربت شوقي على كتفه قائلاً

– لا تخف يا رجل . يبدو أنها ليست أموالك .

يقول بارتباك وخجل :

– إنها مدخرات أبنتي .

يقول شوقي :

– هيا بنا .

يبدو القلق مرتسماً على صفحة وجه العجوز غير أنه ينقاد وراء شوقي ، وهو يسأله :

- هل بيتك بعيذ عن هنا ؟

- لا .. إنني أسكن في بداية شارع الجيش .

يسأله الترزي الكبير :

- هل كنت سبعاً أم ضبعاً يا شوقي ؟

" مهما كنت فأنت الوحيد الذي لا تخسر . كل دور يلعبه اللاعبون تأخذ منه حصتك . أنت وضعت بالداخل رجلاً يراقب الأدوار ويخصم حصتك من كل دور ."

يأخذ شوقي نفساً ثم يقول :

هل عرفتني ضبعاً قبل ذلك اليوم . أنا لم ألعب اليوم فقط إلا بغية إنقاذ هذا البائس . ولكني قد أتيت إليك في أمر آخر .

يتأمله الترزي الكبير بفضول . ينظر إلى وجهه الصبوح . ولحيته الصغيرة الخفيفة . وشاربه الكث . وعينيه العسليتين القويتين . وأنفه المدبب الصغير . ويسأل :

- هل جئت في أمر آخر ؟

يستطرد الترزي الكبير باستغراب متسائلاً :

- وما هو ذلك الأمر ؟ ..

يقول شوقي مبتسماً :

- أولاً أريد أن أقول لك إنني لن أدخل هذا المستنقع بعد اليوم .. وسوف أهاجر منه .

يسخر الترزي قائلاً :

- وهل قام هذا المستنقع على أكتافك يا سيد شوقي حتى يسقط وينهار بانسحابك منه . جئت أهلاً وسهلاً . ذهبت ولم تعد فأهلاً وسهلاً أيضاً .

يقول شوقي دون حدة :

- جئت ثانية لأقول لك إنني أطلب منك أيضاً أن تقفل هذا المستنقع . وتلتفت إلى محلك الذي يدر عليك ذهباً حلالاً .

يغضب الترزي الكبير ويقول :

- أنت إذاً قديس منزل . تعظني يا شوقي . لا تكتفي بأن تهاجر من المكان بل تريد أن تفجر فيه قنبلة .

الفصل الثاني
العودة إلى الكؤوس القديمة

أنيق ، يرتدي ملابس سوداء تليق بسهرة ، حليق اللحية والشارب . عيناه عسليتان قويتان . أنفه صغير مدبب . يطرق الباب ثلاث طرقات ويأز الجرس . يُفتح الباب ، ورائحة نافذة تتسرب منه ، يدخل في بطء . تحتضنه سيدة في أواخر العمر . شعرها أصفر أهلكته الصبغة والأكسجين . تقول متسائلة :

- أين أنت يا وجدي ؟ ..

يقول بلا مبالاة وهو يدخل :

- في الدنيا .
- وقت طويل مضى دون أن نراك .

لم تكن تركت حضنه بعد وهو يقول :

- كنت أعيد حساباتي .

تسخر قائلة :

- ولعلك لم تبحث في دفاترك القديمة .
- بحثت لا شك . وجئت اليوم ...

يقطع كلماته : " هذا حنين إلى الماضي الملوث . كنت فيه نجماً ، ولكن في عالمك الجديد لم تصبح نجماً بعد . جئت تستمتع بالنجومية القديمة . لا . بل جئت أنذر . "

يسأل باستغراب :

- أين زوجك إذاً ؟ ..

- تجده في ركن من الأركان . هنا أو هناك ..

" هذا بيت . لا هذه خمارة غير مرخصة . تديرها تلك المأفونة وزوجها الشيخشيخة لا يُعترض . أنت يا فالح تريد أن تحرك هذه الشخشيخة . . من مستقرها . "

تسأله : هل تشرب كأساً ؟ ..

يقول بثقة : لا لم أعد أشرب .

تمصمص شفتيها ، وتبتعد عنه وتقول :

- لشد ما تغيرت .

يجده منطوياً في أحد الأركان . دفن نفسه حياً . مجرد أنفاس وفم يحتسي . غارق في مقعد سميك الجوانب والكأس في يده . يسأله :

- هل سكرت أم لا زلت في حالة الإفاقة ؟

يشده إليه ، وهو يمد يده بتخاذل ويقول :

- أهلاً وجدي .. تعال .

" أنت هنا وجدي . وهناك شوقي . وفي أماكن أخرى بأسماء متعددة مختلفة ، ولكنهم لا يعرفون . الصلات مقطوعة بين الأماكن لأن لا علاقات بين أشخاصها . أنت تعيش بألف وجه . هل من الممكن أن تكون متعدداً وأنت لا تدري ؟ .. إن الشيء الوحيد الذي يربط بين الأشخاص كلهم هو أنهم في مستنقع من نوع معين وأنت أحد رواده .. "

- أريدك في أمر جلل ..

يرتشف من الكأس في يديه . ويقول :

– أنا لم أسكر بعد . لكن ...

– جئت أحثك على أن تنقذ نفسك من حياة مظلمة ..

– حياة مظلمة ؟ ..

– أنت لا تدري ما سوف يحل بك . وما سوف تفعله بك الخمر في المستقبل ..يا رأفت.

– أنت تشرب مثلي يا وجدي .

– لقد أقلعت . أنت صديقي . وصديقك من نصحك . وجئت اليوم ناصحاً .

– أنت ستنفخ في قربة ذات ثقب يا وجدي . أنت تعرف أنني خرج لجمل أهوج . لقد ضاعت إرادتي مع امرأة ثرية .. جشعة .. نهمة .. لا يقف أمامها قادر أو مقاوم .

– إذاً كف عن هذه الخمر .

– لا أستطيع . سوف تجبرني على شربها .

– قل لها إنني ممتنع عن شربها ففيها هلاكي .

– سوف تجبرني على شربها .

– أهجر حياتك معها .

– وكيف أعيش ؟ .. كان لي وظيفة فجعلتني أستقيل منها لأتفرغ لخمارتها . ثم أصبحت وظيفتي أخيراً أن أتعبد في محرابها الكئيب ..أنا يا صديقي رجل لا إرادة لي . أعترف ... أعترف .. أعترف ..

- أنت إنسان يا رأفت .. ويجب أن تكون لك إرادة ويجب أن تقاوم . إن الخمر في يوم من الأيام سوف تشوه صحتك . وسوف تلقي بك إن عاجلاً وإن آجلاً خارج البيت ، فماذا يفعل معلول في طريق الحياة ؟.. تصور العذاب الذي سوف تلاقيه ؟! .. أنت صديقي وجئت اليوم لأنصحك .

- يا أخي يكفي أنك هجرت هذه الدنيا الخسيسة .. مالك أنت والآخرون ؟ ..

تأتي بثينة تستطلع وتسأل :

- مالك وزوجي يا وجدي . تركت الشراب ونحن هنا لا نقدم غير الشراب ، فما الذي جاء بك ؟ ..

- أبداً. جئت أقترض قرضاً حسناً .

- وهل رأفت معه نقود حتى يقرضك ؟ ..

- فعلاً . لم أجد عنده القرض الحسن .

هل معقول أن تسلبه الإرادة لهذه الدرجة ؟ ..وأن يدمن الخمر حتى لا يتمكن من الإقلاع عنها ؟ .. هل هناك وسيلة لإنقاذه من هذا المستنقع ؟ ..إن رأفت صديقي ولا يجوز أن أتخلى عنه . يجب أن أنقذه من هذا المستنقع ! .. لكن كيف ؟ ..إذا كنت أنا تنبهت لوضعي ، وبدأت أنتشل نفسي من هذه البيئة الملوثة ، وكنت ألعب بين المتناقضين ، وأنتشلتها بصعوبة ، فكيف أنتشله ؟ ..أنت حاكم نفسك يا صبري عبد المتعال ، ولست حاكماً على الآخرين . عليك أن تمضي الآن . "

نظرات من الشـرر كـانت تقذفهـا عيناهـا ، اللتـان أنطفـأ فيهمـا البريق ، لقد انقلبـت المـرأة الرقطـاء مـن قطـة ناعمـة إلـى حيـة ملساء . شعرت أن الواجهة التي تستند إليها سوف تسـحب منهـا ، كأنما في داخلها رادار يشير إلى نقاط الخطر التي تحيط بها .

تجلس بجانبهما وتسأل :

– هل احضر لك كأساً يا وجدي ؟

يقول ضاحكاً :

– الحقيقة ليس معي ثمنها .

تقول ببساطة : هذه المرة ستكون الكأس علـى حسـاب صـاحب المحل . وتحول الحاء خاء تقليداً للأرمن والأجانب .

– الحقيقة لا أشرب الآن .

– ولكنك على ما يبدو تحولت إلى واعظ .

– بـل منقـذ .. جئـت أنـادي أصحـــابي أن يسـيروا معــي فــي الطريق .

– لا .. لا ..أنت أصبحت قديساً .. أو نبياً .

– يا عزيزتي .. الأنبياء يختارهم الله . وأنـا لا أدعـي أن اللـه أختارني . ما أنـا إلا منقذ مـن الضلالـة . جئـت أنتشـل النـاس .. أحبابي .. من براثن الرذيلة .

تنهض وتقول :

– لقد زدت عن حدك اليوم يا وجدي . يمكنك أن تنصرف .

الفصل الثالث

المفلس البائس

هذه هي العمارة . قديمة كالحة . تكاد من قدمها تهتز من حركة السيارات والترام في شارع الجيش . واسعة من الداخل . لعل صاحبها يفكر الآن في هدمها وبناء ناطحات سحاب عشر بدلاً منها ، لكنه لا يستطيع .. القوانين تشد أذنه وتنهاه عن فعل ذلك . يركب المصعد العجيب الذي يضيء حينما تُفتح أبوابه ، وعليك أن تحدد الدور الذي ستصعد إليه قبل أن تقفله ويملؤه الظلام . المصعد تعتريه الظلمة وهو مغلق أو وهو يصعد إلى الأدوار العالية بعكس باقي المصاعد في العالم .

شدته في المرة الأولى حينما جاء مع العجوز المفلس البائس . مريض بمرض الميسر ، غير أنه يحاول أن يشفيه . تحول في هذه الأيام إلى طبيب يداوي أمراض البؤساء . نشل نفسه من مستنقع الرذيلة ، ولكن يأبى أن يمضي وحده ، يريد أن ينقذ الآخرين .

أصر أن يسير معه من ميدان الاوبرا المحترقة إلى شارع الجيش . والعجوز لا يدري ما إذا كان قد أسترد نقوده من مائدة الميسر أم لم يستردها . كان يريد أن يسلم النقود إلى شخص راشد ولا يسلمها إلى هذا المريض . وكانت دموعه قد توقفت انتظاراً للمفاجأة . وحاول أن يأخذ النقود منه عند باب العمارة المتهالكة ، غير أنه أصر أن يصعد معه ليشرب كوباً من الشاي .

ورآها لا تزال آثار النوم في عينيها . واستغربت أن يعود العجوز بصحبة هذا الشاب الجميل . وتفاجأ بيده تمتد إليها بعشرة آلاف جنيه ويقول لها :

– أنت ابنة الأستاذ واكد .

– نعم .. أنا ..

– إذاً احتفظي بهذا المبلغ في حرز مكين .

حينما تمتد يدها لتأخذ المبلغ ، والاستغراب يسيطر على ملامحها . يسترد المبلغ من جديد ويقول بثقة :

– أو أقول لك . أرتدي ثيابك لنذهب معاً إلى البنك لإيداعه فيه .

وتسمع أباها يقول :

– أعملي لنا شاياً يا ألفت .

تائهة بين هذه الأفعال الغريبة ، يفسر لها الوضع قائلاً :

– كاد أبوك أن يُسرق اليوم ..

يقول أبوها وهو يغالب دموعه :

– هذه نقودك يا ألفت .. يا ابنتي .

ويلاحقها بالكلام قائلاً :

– كاد أولاد الحرام يسرقون والدك اليوم لولا عناية الله ..

تتساءل في دهشة :

– لكن من جعلك تأخذها معك وتخرج ..

يسقط الأب على كرسي إعياء . بينما الشاب الذي يصاحبه يقول : كان يريد أن يضعهم لك في شهادات استثمار حتى لا يتجمد المبلغ في البيت ...

تتساءل : ولكنه يعرف رأي في شهادات الاستثمار .

يقول الشاب : هكذا أستقر رأيه وحاول بعض اللصوص أن يهاجموه .. لولا عناية الله . وأعتقد أن خير وسيلة لحفظ هذه النقود .. أن توضع في أحد المصارف ..

يقول الأب ، وهو يغمض عينيه ويحبس دموعه عن التساقط :

– كلام الأستاذ شوقي مضبوط .. أذهبي واصنعي لنا شاياً .. وأرتدي ثيابك ليوصلك الأستاذ شوقي إلى مصرف لتضعي فيه نقودك ..

لم تناقش معهما وصولهما في الصباح الباكر معاً . ولِم خرج أبوها قبل افتتاح المصارف مبكراً . وأين هم اللصوص الذين حاولوا خطف النقود ؟ .. وكيف لم تسمع من قبل عن لصوص يعملون في الصباح . استسلمت لكلامهما وأخذته قضية مسلمة حتى لا تحرجهما .

بينما كان يزدرد الشاي ، كان يتأملها . عذراء جميلة المحيا ، صدرها ناهد ، وجسدها بض ، وإهابها ناعم . غير أن الحجاب يخفي معظم مفاتنها ، والثياب الطويلة قد ساعدته على ذلك . يتخفى جمالها وراء هذه الملابس الفضفاضة .

– الآنسة تعمل ؟ ..

- نعم .. صحفية .

- إذاً أنت متعلمة . كيف إذاً تضعين هذا المبلغ في البيت ؟

- كنت سأحمله فعلاً إلى أحد المصارف ، ولكن بالأمس فقط .

يقاطعها الأب وهو يقول :

- كانت ألفت قد باعت بيتاً قديماً في الموسكي .. بعشرين ألف جنيه . أعطاها المشتري بالأمس عشرة آلاف جنيه ، والجزء المتبقي كان سيعطيه لها عند التسجيل . لقد ورثته عن المرحومة أمها .

خرج معها يحمل المبلغ ، وحينما اطمأن إلى إيداعه ، أستأذن أن ينصرف . غير أن صورتها لم تفارقه . وحديثها الشهي عاد يراوده .

- والأستاذ شوقي ماذا يعمل ؟

- أعمالاً حرة .

- هل حصلت على شهادة ؟

- بطبيعة الحال . أنا حاصل على بكالوريوس العلوم قسم رياضة بحتة . وقد أعددت الماجستير ، وأقوم بالتحضير للدكتوراه .. في نظرية الاحتمالات .

- عظيم .. عظيم .

لا تدري أنه كان يلعب على حبل المتناقضات . يشق طريقه في النهار في سبيل الفضيلة . وفي الليل يسبح في مستنقع الرذيلة الآسن الراكد . وفي كل أماكن الفضيلة له أسم واحد . وفي أوكار

الرذيلة له أسماء مختلفة . والأماكن غير متصلة لا يعـرف أحدهـا ملامح الآخر . هو الوحيد الذي يتذكر اسمه في كل وكر .. أو أي مكان .

اليوم جاء لعملين : أن يراعي المفلس البائس . وأن يشاهد الملاك الجديد الذي ظهر في حياته دون مقدمات . هل من المعقول أن تنتهي هذه العلاقة الجديدة إلى زواج ؟ .. ويختفي وجدي وشوقي وفريد وجرجس وإيزاك وغيرهم ليبقى وجه واحد هو وجه صبري عبد المتعال ؟ .. هل هذا ممكن ؟ .. يتحسس ذقنه ولحيته الخفيفة . ويداعب شاربه الكث . ويضغط زر الجرس . يرن الجرس بقوة كأنه كان على هذه الحالة لينبه البعيدين بقدوم زائر . وبعد فترة يفتح العجوز المفلس .

– أهلاً عم واكد .

– من ؟ .. شوقي ؟ .. أين أنت ؟ ..

حينما يجلسان في حجرة الاستقبال . حجرة كالحة الفراش ، غير أنها تنبئ بعز قديم ولت أيامه . يقول :

– ماذا تفعل الآن يا أستاذ واكد ؟ ..

– سجنت نفسي يا أبني . حتى لا أطاوع الداء اللعين .

– هذا ما يجب . وحاول أن تجرد نفسك من النقود أياماً وأسابيع ، حتى لا تعاود الميسر مرة أخري .

– في البدء كنت ألعب النرد مقابل خمس أو عشرة قروش ثم تطور الوضع وأصبحت ألعب الورق . عرفت الأماكن واحداً

واحداً وبدأت أتردد عليها . كنت أكسب في بعض الأحيان فأتمادى وأخسر في البعض الآخر وأعاود من جديد لعلي أعوض ما خسرته . حينما اكتشفت المرحومة زوجتي هذا الداء الأثيم ، كتبت بيتها القديم باسم ابنتها بيعاً وشراء . كان ريعه في البداية معقولاً يغني الفتاة عن الفقر خاصة إذا ما أحوجها والدها إلى العوز . لكن ألفت كانت واعية فاستمرت في دراستها حتى حصلت على شهادة كلية الإعلام واشتغلت بالصحافة . أقول لك الحقيقة إنني حرضتها على بيع البيت ، لألعب بالقيمة كلها ، وأتمكن أن أسترد ما ضاع مني في الأيام الغابرة . غير أن المأساة كانت تترصدني ، لولاك .. ولولا أن العناية الإلهية أرسلتك في اللحظة الأخيرة .

– ماذا يمكن أن يكون الوضع لو لم أكن قد ظهرت في ذلك اليوم . وما كان موقفك أمام أبنتك ؟ ..

– تصدقني القول . كنت على وشك أن انتحر .

– لا ..لا .. يا رجل . قليل من الضغط يمكن أن يولد البعد عن هذه العادة الزنيمة .

يتلفت حواليه باستغراب :

– لكن أين الأستاذة ألفت ؟

– تأتي في المساء . تعمل بعد الساعة الواحدة بعد الظهر .

– إذا هي الآن في الجريدة .

– نعم ..

" يا للحظ العاثر . "

يبدو العجوز متلهفاً على سؤاله ، لكن الخجل يمنعه ، وبعد مقاومة يسأل :

– لكن إذا كنت بهذه البراعة ، فلم لا تكون لك ثروة من هؤلاء المجانين ؟ ..

– الحقيقة زهدت في هذه الثروة لأنها من طريق حرام . في يوم من الأيام كانت النقود تأتي إليّ لا أذهب لها . ثم طلبت منها ألا تأتي .

ينبهر الرجل العجوز ويسأل :

– لا أعرف ما معدنك ، ولكنك تحيرني . هل أحد له مقدرتك ولا يستغلها . لقد ثرثر معي الترزي وأنت في داخل الحجرة . وأمتدح مقدرتك بشدة . يقول إنك تعرف الورقة التي لدى خصمك . والورقة التي لم تنزل إلى الساحة بعد . بل لديك مقدرة على معرفة ترتيب الأوراق .

– هذا ما يسمي علم الحساب . بالإضافة إلى قوة الذاكرة .

– غريبة ! .. وكيف تعرف ذلك ؟ ..

– دراسة الموقف . دراسة يا أستاذ واكد . وخبرة سنوات .

الفصل الرابع

التجارة في الأخضر والأحمر

كل الطرق قريبة من شارع محمد علي . الطرق التي تتركز فيها أنشطة السوء . الترزي الكبير قريب من بيت رأفت . قريب من محل التجارة في الأخضر والأحمر . الدولار والإسترليني . أحد منابع الثروة الحرام . من السهل جدا على شوقي أن يدير الورق على المائدة الخضراء ، والترزي الكبير يعرفه جيدا ويعرف كيف يلعب . وببساطة يتمكن وجدي أن يتجرع كؤوس الخمر دون أن يتأثر جهازه العصبي . وبسهولة يمكن أن يفلت إيزاك من الشرطة بآلاف الدولارات والإسترليني . ثعلب هو إيزاك من ثعالب العملة الصعبة النادرة . وكلهم شخص واحد لكن أحداً لا يعرف .

يدخل الخواجه إيزاك ، وقد سقطت نظارته على أرنبة أنفه . وسقطت قبعته على حاجبيه . وتبدو عيناه العسليتان من خلف النظارة البيضاء تبرقان . وأنفه المدبب الصغير يسمح بانزلاق النظارة . أما جسده الطويل الرشيق فقد قوسه ليبدو تاجراً يهودياً تماماً .

يقف رجل في واجهة المحل كان يجلس . بينما يربت عليه الخواجة إيزاك ويقول :

– كيف حالك يا سليم ؟

– الحمد لله يا خواجه .

لم يكـن للخواجـه شـارب ولحيـة فـي ذلـك اليـوم . كـان وجهـه الصبوح أحمر ، كأنما شرب كثيراً من عصير التفـاح النـادر . وداخل إلى الداخل ولم يتوجه إلى المكتب في الحجرة إنما أفترش الكنبـة الجلديـة المواجهـة للمكتب ، وسقط عليهـا إعيـاء . كـانت الحجـرة بـاردة وتكييـف الهـواء يطـرد بقـوة أي دفقـات مـن الحـر اللافح الذي يدلف إلى الحجرة خلسة . هـذه الحجـرة هـي الحصـن المنيع من لسعات الشمس الحارقة .وقد وضع فيهـا التكييـف رغـم أنف الخواجة مزراحي .

يسمع الخواجه إيزاك جلبـة فـي الخـارج . وعـامل مـن العمـال يصرخ في رجل ينتحب ويولول . يخرج متسائلاً :

– ماذا حدث ؟ ..

– أبـداً يـا خواجـه . هذا الرجـل أراد اسـتبدال مائـة دولار . وحاولت أن أستبدلها له فقبضت علينا الشرطة . وصـادرت المائـة دولار وأفرجت عنا . فماذا أنـا بفـاعل ؟ .. أخذ يتعقبنـي دون أن أدري ثم حاول أن يسـترد المائـة دولار منـي تلـك التـي صادرتهـا الشرطة منه .

ينظر الخواجه إليه بإمعان :

– أعطه المائة دولار يا سليم .

يتقدم الرجل مهرولاً ويقول :

– ربنا يعمر بيتك يا خواجه . توبة أن أبيـع دولاراً واحداً فـي السوق السوداء .

حينما يمضي الرجل وهو يقبل المائة دولار في أعلاها وأسفلها يقول سليم : سوف نفلس هكذا يا خواجه .

– كن هواء فلا تفلس . الهواء هو الشيء الوحيد في الدنيا المتصف بالوفرة .

سأله سليم : وكيف أكون هواء ؟

قال : هذه ليست مشكلتي . ولم يفهم سليم كلمات الخواجه . ودخل ايزاك إلى المكتب من جديد . وبعد دقائق دخلت عليه سيدة . أنيقة للغاية . عيناها عسليتان قويتان . طويلة . رشيقة . وأنفها مدبب . تأملته بإمعان . وسألته على الفور :

– ما اسمك ؟ ..

– ماذا تريدين ؟

– ما اسمك أولاً ؟

– أنا اسمي ايزاك مزراحي .

– هل هذا معقول ؟.. تذكرني بشخص اعرفه .

– ماذا تريدين ؟

– أريد تغيير ألف دولار .

– لا .. ليس لدينا تغيير الآن .. إننا نتاجر فقط في الأسهم والسندات . ولا صلة لنا بتجارة العملة . خلاص أنتهي عهد تجارة الأخضر والأحمر .

تعود تسأله من جديد :

– هل ايزاك مزراحي اسمك الحقيقي ؟

– يا سيدتي لا تعطليني .. أرجوك .

تمضي السيدة . " أنا أعرفك جيداً يا عقيلة هانم مرعي . ومهما حاولت أن تتعرفي على ملامحي ، فمن الصعب عليك أن تتأكدي من صبري عبد المتعال . لقد أختفي ذلك الرجل من حياتك إلى الأبد . ولا سبيل إلى ظهوره مرة أخرى في واقعك الحي . أنت منبع المستنقع . وقد خرج صبري الآن من المصب . "

ينادي ايزاك سليماً ويقول له :

– خذ نفسك يا سليم الآن . ومر على الأولاد أمام المصارف وقل لهم إن يكفوا عن شراء الدولار والإسترليني .. أو أي عملة أخرى . لقد أنهيت الأعمال في ذلك المجال .

يذكره سليم قائلاً

– سوف يغضب الخواجه مزراحي يا مسيو ايزاك ! ..

يقول بغضب :

– اسمع الكلام ... انتهت تجارة الأخضر والأحمر .. يا سليم .

يرفع يده بتحية عسكرية وقد ضرب الأرض بقدمه بشدة كالجندي أمام الضابط وهو يقول :

– سمعاً وطاعةً يا معلم .

" بهذه الطريقة أكون قد غسلت نفسي من الأوساخ الكثيرة التي علقت بها . الخمر الميسر تجارة العملة والنساء العاهرات . ماذا بقى ؟ ... تجارة الرقيق الأبيض . يالك من رجل برعت في عالم الشر حتى أدهشت الجميع . . جميع الأشرار . وبرعت في

عالم الخير ، حتى أستغرب من أفضالك كثير من الناس . يكفي ذلك العالم الآن . لا .. لا .. لا بد أن ألقي بطوق النجاة إلى السابحين في المستنقع . وإذا لم تستطع كلماتي أن تنقذهم ، فسوف أشدهم بيدي . يا بني لا تمثل دور المنقذ . لقد فات الأشرار وقت الإنقاذ . "

يخلع قبعته ، بينما تدخل عقيلة هانم مرعي . تلقي التحية أمامه بألفين وثلاثمائة جنيه ، وهي تقول :

- أريد أن أشتري أسهماً ذات فائدة عالية .

يقاوم توتراً شديداً يعصف به . " ما الذي أرجعك ثانية ؟ .. " يشد قائمة بالأسهم والسندات . ويقرأ عليها ثم يسأل :

- أي سهم أو سند تحبين شراءه . هذه الأسهم والسندات المعروضة للبيع عندي .

- أختر لي ما تشاء ..

ثم تسأله وقد قطعت كلماتها عن مجراها الطبيعي :

- أحقاً اسمك ايزاك ؟ ..

- يدللوني بالخواجة زيكو . "لا سبيل أن تعرفي أن أمامك الوجه الثالث المرئي لصبري عبد المتعال الرجل غير المرئي . لا سبيل أمامك . "

- كنت أعتقد ...

يقاطعها متسائلاً :

- هل كان لك ابن يشبهني ؟ ..

تقول مرتبكة : نعم .. نعم ..
- هل ضاع منك ؟
- تركني منذ حوالي خمس عشرة سنة .
- ألم يتصل بك ؟
- لا ..
- ولماذا تركك ؟ ..
- ظروف ..
يهز رأسه وهو يقول :
- حقا ظروف . تفرق بين المرء وأخيه .. وبين المرء وأبيه أو بنيه .. وبين المرأة وابنها .
" هذه الظروف أنت صنعتها بيديك . أو لم تحاولي أن تقاوميها وتقفي في مواجهتها . سحقتك . ولم يكن من السهل أن تعصف به فخرج من .. دائرتها . "
يقول : المهم نعود إلى موضوعنا . أعطيك الآن قائمة بالأسهم والسندات التي يريد أصحابها بيعها ..
تقاطعه متسائلة :
- ولم يريد أصحابها بيعها ؟ ..
يضحك وهو يقول :
- ظروف . قد يكون بسبب العوز .. أو بسبب رغبته في شراء عقار فيرغب في أن تكون لديه سيولة نقدية .
- أو بسبب أن أرباحها انخفضت أو لا تعطي أرباحاً .

- هذا أمر وارد .
- إذاً كيف أعرف ؟ ..
- حينما يستقر أمرك يمكن أن أنبهك . لكن لا يمكنني الآن أن آخذ كل سهم وسند وأشرح لك ظروفه وفوائده ومضاره . وقتي لا يسمح .

تأخذ منه قائمة يناولها إياها . وتنهض ، وهي تتأمله بعمق :

" متصابية .. سوف تعيشين حياتك يا عقيلة هانم مرعي متصابية .. "

تنصرف ويدخل ما يزيد على خمسة عشر رجلاً إلى الحجرة ، فيتساءل إيزاك :

- ما هناك ؟ ..

يتقدم واحد منهم ويسأل :

- حرم علينا سليم شراء دولارات أو إسترليني أو أي عملة أجنبية .. فماذا سنفعل ؟

يقول إيزاك : وهو ينظر إليهم بإمعان ، وقد سقطت النظارة على أنفه المدببة :

- هذا العمل مجرم بأمر القانون . وقد أوصاني الخواجه مزراحي ألا أقربه . وأنا نفسي كنت لن أتعامل فيه ، فإذا كان منكم يريد الاستمرار في هذا العمل فليذهب إلى تجار آخرين ليعمل معهم . أما لو لم يكن يريد فأمهلوني أسبوعاً لأدبر لكم عملاً جديداً ليس فيه حرمة .

يتساءل زعيم العمال :

- وما سيكون هذا العمل ؟

يقول إيزاك بوضوح :

- عمل شريف مجز ..

يتساءل الزعيم قائلاً :

- وماذا يمكن أن يعمل رجل يصطاد الزبائن ، وليس له مهنة إلا أن يأخذ من الناس ورقة صعبة المنال ويعطيهم ورقة سهلة المنال ؟ ..

الفصل الخامس

الصحوة مع الفجر

تدب قدماه في شارع محمد علـي . وتتنقل رائحـة السمك إلـى أنفه من السوق القريبة .؟ وتزكم أنفاسه رائحة الزبالة المتصـاعدة من صناديقها الحديدية الكبيرة . وتمشي وراءه كأنها تعاكسه حتـى يدخل الحارة . ألن تهاجر من هذه الحارة أيضاً مثلما هاجرت مـن طرقـات الرذيلـة ؟ ..أم أن مزراحــي علمـك البخـل حتـى علـى نفسـك ؟ ! ..أو علمك البخل فقط على نفسـك . فرغـم الأمــوال المكدسة في المصارف لا تحاول أن يتغير مظهرك .

يفتح الباب ليجدها في الصالة الصغيرة في تلـك الشـقة العاريـة في هذه الحارة الكئيبة . أول ملاذ لجأ إليه من الظالمة ! ..

- السلام عليكم يا دادة مبروكة .

- عليكم السلام يا ولدي صبري .

أمه الحقيقية . أما أمه المزيفة عقيلة هانم مرعي ، لا ذكـر لهـا في قلبه . لجأ إلى دادة مبروكة حينما لم تتمكن عقيلة هانم من كبح جماح كرشة الجزار زوجهـا الشـرس ذلـك الثـور الـذي آوتـه فـي بيتها.

- هل أجهز لك الطعام ؟

- آه .. لو سمحت .

وهذه المـرأة المسـكينة مـا ذنبهـا أن تبخـل عليهـا بأثــاث جيـد وعيشـة راضيـة ؟ .. مـا الـذي يمنعـك أن تغـدق عليهـا كمـا

أغدقت عليك هي من حنانها ورعايتها ؟ . . حقاً لم تتحمل غير شهرين ثم بدأ يصرف هو على البيت ، لكنه يصرف بتقتير . كان يمتنع عن الصرف بإسراف خشية غوائل الزمن . لكن هذا الزمن أصبحت حاكمه فما الداعي إذاً للشح ؟ ..علمه مزراحي البخل وأصبح قبضة قوية تهصره إليها بشدة .

يسألها وهي ترتب المائدة :

– ألا نغادر هذه الحارة الآن يا دادة مبروكة ؟ ..

تنظر إليه بإمعان وتسأل :

– وإلى أين نذهب يا ولدي ؟ ..

– إلى شقة فخمة تليق بمقامنا .

– وهل معك ؟ ..

– معي الكثير .

وبينما هي تحمل الأرز بعد أن وضعت الأكواب والطبخ والماء والسلاطة . ابتدرها قائلاً :

– بالصدفة دخلت المكتب واحدة اليوم .

– من ؟

– عقيلة هانم مرعي .

تضرب صدرها مندهشة وتقول :

– معقول هذا ؟ ..

وتردف قائلة :

–هل عرفتك ؟ ..

- شبهت عليّ .
- سوف تقتلها حسرة يا بني ..
- هي امرأة لا تتألم .
- يا بني لا تقل ذلك . أقول لك سراً .
يلتفت إليها وهو يأكل ، ويغرف الأرز في طبقه ، وهي تمضغ لقيمات من طبق البسلة الذي أمامها :
- ماذا ؟ ..
- ولا تغضب .
- أنا لا يمكن أن أغضب منك .
- كنت أزورها .
- حقاً ؟ ..
- نعم . وكانت تتوجع كثيراً من أجلك .
- وأنا أعرف أنك كنت تزورينها .
- يا خبر .. يا صبري يا ولدي .
يسألها مرة أخرى :
- ما رأيك لو انتقلنا من هذه الشقة الصغيرة إلى شقة واسعة طويلة عريضة ؟
- وماذا سنفعل فيها ؟
- ننام .. وحولنا الخدم والحشم .
- معقول هذا ؟ ..
- آن الأوان أن أسعدك يا مبروكة هانم مثلما أسعدتني .

– لا تقل ذلك . إن جمائل أمك وأبيك من قبلها قد أغرقتني . وأنت تعيش على خيرك .

– يكفي أنني وجدت مأوى في وقت عز فيه السكن .

" كنت طوق النجاة في بحر أجاج عالي الموج كثير الزبد . "

يدخل حجرته ويرقد في فراشه . حقاً لم يعد جائزاً أن أدفن نفسي والنقود معي . لا بد أن أتمتع بها ، لا أن أكتنزها ، ولكنها يا صبري نقود ملوثة . لا .. لا .. لا فائدة من المواعظ . هذه أموال عرقت الليالي من أجل الحصول عليها . وكل ما يأتي من العرق طاهر ، ولو أن العرق له طعم الملح اللاذع في بعض الأحيان .

يبدو أن الوقت يمر سريعاً منذ هجرت بيت أمك أو بالأحرى بيت زوج أمك .كانت أيامي معه كلها قسوة . تزوجته بعد موت أبيك المفاجيء حتى تتمكن أن تواصل الحياة . وظنت أن اللقمة المغموسة في الطين يمكن أن تسد الرمق . طين هذا الرجل الباطش . جزار حقاً وكل تصرفاته فيها لون الدم . وقد استسلمت هي لهذه الحياة المرة . أما أنت فقد لجأت إلى دادتك مبروكة . من كان يظن أن هذه المرأة الفقيرة يمكن أن ترعاك وتأخذ بيدك . وتتذكر فضل والدك عليها حينما سعى لتحصل على معاش ابنها الشهيد . كانت الأوراق تمشي مشى السلحفاة في إدارة المعاشات بالقوات المسلحة ، وحركها بالواسطة والكلمة الجميلة والاسترحام من أصحاب النظام الوتير . ولعلها لم تنس جميل أبيك

فاحتضنتك . وكتمت سرك عن أمك ولو أنها تعرف أن قلبها يتفتت عليك . وكم من مرة كنت تتجول في المنطقة التي تسكنها وتجدها تدخل لزيارتها . وها هي تعترف أخيراً لكنه اعتراف تعرفه .ونجحت في الثانوية العامة ، وقدمت أوراقك إلى مكتب التنسيق . ولعله كان المكان الوحيد الذي وقفت فيه طويلاً في صف من الطلبة لا ينتهي . وتأتي وقفتك بجانب رأفت . وتثرثران طويلاً . ثرثرة لا تنتهي . وتتشاركان في شظف العيش ، وفي اللقمة المرة ، وفي الطريق المليئة بالأشواك . ويعلمك أولى نظرياته في الحياة وهي اللعب على المتناقضين . تسير في طريق الرذيلة وفي نفس الوقت طريق الفضيلة . كيف يحدث ذلك يا عزيزي ؟ ..تنبهر بنظريته الجديدة . استطعت أن تحققها وأنت لا تملك براءة اختراعها لكن صاحبها فشل في أول الطريق . استطاعت زوجه الملعونة أن تشده إلى طريق الأشواك ، ولم يستطع أن يفلت منها .. لا يزال تحت سيطرتها منذ خمسة عشر عاماً ، ولا يتمكن من الإفلات . وذلك منذ أن ألتقي بها في أحد بيوت التسرية عن العجائز المتصابيات .

يضحك صبري ، وهو يتذكر كيف قاده رأفت إلى الفيللا الصامتة في شارع من شوارع الهرم . ويدخلها وقلبه يرتجف . لم يكن العمل معروفاً له بالضبط ، ولكنه أنبأك أن السباحة في البحر لا تتقن إلا من مقاومة الموج والخوض في الماء . في هذه الفيللا ألتقي رأفت ببثينة ، وألقت شباكها عليه ، واتخذته زوجاً إلى

الأبد . أما أنت فلم تتمكن واحدة من العجائز المتصابيات أن تأسرك أو أن تؤثر في قراراتك . أنت أجدت اللعب على حبال المتناقضات . وانغمست في المستنقع دون أن تستنشق من مائه العطن إلا قليلاً .

يا لها من امرأة مدام ماريكا ، تلك التي استطاعت أن تقنع النساء العجائز أن يسرين على أنفسهن بهذه التسرية المحرمة . استغلت رغبتهن في أتقاد الرماد والنفخ فيه من جديد حتى تظهر الجذوة المتهالكة ، وكن يحسبن أن ترملهن أو طلاقهن أو فوات قطار الزواج عليهن دون توقف سوف يلقي بهن إلى هاوية اليأس وفقدان الشباب . ومن أجل إعادة الشباب إليهن استأجرت لهن هؤلاء الشباب الذين يبعثون فيهن الرغبة ويشعلون النيران وذلك مقابل مبالغ زهيدة يدفعنها لها ولهم . يدفعن جزءاً منها لمدام ماريكا مقابل شغل الحجرات . وجزءاً آخر لهؤلاء الشباب الذين تمكنوا من إشباع رغباتهن .

هكذا استطعت يا صبري في خلال الإجازة أن تدخر المبالغ اللازمة للدراسة في كلية العلوم . وتخصصت في قسم الرياضيات البحتة . وكان يكفي جداً أن تزور فيللا ماريكا في يومي الخميس والجمعة ساعة أو ساعتين . وأن تستكمل دراساتك في بقية أيام الأسبوع . بينما رأفت يتخبط في كلية التجارة بين السنة الأولى والثانية ويقفز إلى الثالثة ويتخبط من جديد في الرابعة . حينما

بدأت بثينة تخيط خيوطها العنكبوتية عليه وتلفه بها . كنت أنت سلكت طريقك إلى الماجستير .

بينما يسرح بأفكاره وذكرياته ، وكوب الشاي قد أعدته له دادة مبروكة قد برد . سمع أذان الفجر من المسجد القريب ، فنهض ليصلي . دائما تأتيه الصحوة مع الفجر . جاءته مع الفجر حينما أفاق وهو في قاع المستنقع . وقرر أن يهاجر منه إلى غير رجعة . ولكن هجرته من المستنقع لم يجعلها فردية ، إنما يؤثر أن يأخذ معه أصحاب المستنقع . إما بالإقناع وإما بالقوة . ويبدو أن الإقناع لا جدوى منه ، ولكن القوة هي الوسيلة الوحيدة لذلك . وهي ليست قوته . إنما قوة الشرطة التي ستجفف هذه المستنقعات جميعها .. فهل خائن الخائن يعد خائناً ؟ ..

الفصل السادس

إطلاق الرصاص على أهل النار

يسألها :

- هل خائن الخائن يعد خائناً ؟ ..

تقول ألفت واكد باستغراب :

- لم أفهم ؟ ! ..

يجيب صبري عبد المتعال :

- لو فرض أن مجرما يعرف أسرار كبير المجرمين وأفشاها للشرطة فهل يعد خائناً ؟

تهز ألفت رأسها بالنفي وتقول وهى تتأمل ذقنه ولحيته الزائلين ووجهه الذي امتلأ بالنور :

- لا أعتقد لأن شاهد الملك في قضايا المخدرات ليس مذنباً ويطلق سراحه . لكن لم تسألني تلك الأسئلة . يقول ببساطة وهو يلمس ذقنه ولحيته المختفيين :

- لأن لي دراية بما يجري في الظلام وأريد أن أسلط عليه الأضواء حتى تهرب الخفافيش التي تعيش فيه أو يقبض عليها وهي هاربة . ما رأيك في رحلة صحفية إلى منطقة المستنقعات حتى تشاهدي بنفسك أهل النار .

- إذاً فأنت تريد إطلاق الرصاص على أهل النار ؟ ..

- لكن أمهليني فترة من الوقت أولاً حتى أطلب منهم التوبة ، فإن أبوا نطلق عليهم الرصاص .

تضحك وتقول :

– سوف نتحول إلى مجرمين .

يستأذن منها أن ينصرف ، فتقوم تصافحه . كان أمامها ورقات صفراء لا بد أن تكتبها. إنـه تحقيق أجرته . وحواليها محررون منهمكون في الكتابة . ونفر منهم قد أجتمع حول مكتب مدير التحرير .

ينصرف متجهاً من جديد إلى مكتب مزراحي . وحينما يدخل المكتب يجدها أمامه : عقيلة هانم مرعي . مرة أخرى . يشعر بعواطف متناقضة بين رفض وجودها وقبوله . ويصافحها فتقول :

– أهلاً إيزاك . جئتك برغبتي في شراء بعض الأسهم .

يقول وهو يسحب يده من يدها ببطء :

– وماله .

تسأله :

– هل أنت متزوج يا إيزاك ؟

ينظر إليها بسخرية ، وهو يحس بمحاولتها رفع التكليف بينها وبينه :

– أبداً لم تسألين ؟

– أبداً . أجدك مشغولاً ساهماً . لعل مشاكل الزواج تحول دون أن تركز في عملك .

– لا .. لا .. هناك مشاغل أخرى . وهل أنت متزوجة ؟ ..

تقول بسرعة : لا .. زوجي مات منذ زمن .
- ياه .. أنت أرملة .
- للمرة الثانية .
يقول ضاحكاً : إذاً سوف يخاف الرجال من الاقتران بك .
تقول : إنهما ماتا ميتة طبيعية . الأول مات من شدة المرض . والثاني مات من تعاطي المخدرات . تركني ومات ، ولم يترك وراءه شيئاً غير القليل . بعت دكانه ، أو بالأحرى نصيبي فيه ، وها أنذا أحاول أن أعيش بقيمة البيع .
- ألم تنجبي منه أولاداً ؟ ..
- لا .. ولكن أنجبت من الأول ، ذلك الولد الذي تركني وهرب ، الذي قلت لك في المرة الأولى أنه يشبهك .
- الشبه وارد . لقد رأيت كثيرين يشبهونني صدفة . ولكن هناك اختلافات .
- لا اختلاف بينك وبينه اللهم أنه كان بشارب وأنت دونه . وكان هزيلاً وأنت تميل إلى البدانة .
- كنت وأنا صغير هزيلاً .. والآن أتمم لك بيع الأسهم .. ولكن اعتقد أن ربحها لن يكون مجزياً خاصة أنك أرملة وتحتاجين إلى المال . أنصحك أن تشتري تلك الشهادات الاستثمارية التي سوف تعطيك عائداً شهرياً أكبر من أرباح الأسهم وهي تعطي أرباحاً سنوية .
- إذاً دعني أفكر .

– لا تفكري ، ذلك أسلم لك على اعتبار أنك أرملة . ولن تفكري في إدارة مشروعات معينة .

تخرج عقيلة هانم مرعي : " عجيب أن دادة مبروكة لم تقل لي إن زوجها مات . لعلها لم تعرف ذلك . لعله مات حديثاً بدليل أنها باعت أملاكه في الوقت الحالي . يبدو أنها امرأة جهنمية جعلته يدمن المخدرات ظناً بأنها سوف تساعده على إرضائها ، ولكنه كان يدق أول مسمار في نعشه . "

الفصل السابع

يهودي في الريف

" غريبة أن يخلد مزراحي إلى الريف ، واليهود يحبون حياة المدن ، ولكنهم الآن في إسرائيل يزرعون ويعيشون عيشة المزارعين . " تحين منه التفاتة إلى القصر ذي الحديقة البديعة عند أول المنحني ، وهو في طريقه إلى عزبة مزراحي . يرى القصر الغارق في السكون : كم من آهات وتوجعات في داخلك ! .. كم قضيت أياماً في ذلك القصر ! .. لا تنس أن ماريكا صاحبته يجب أن تتوب يا أيها المنقذ . سوف يحين عليها الدور . بيت سيئ السمعة ولكن مغلف بالاحجبة .. لا تكاد عين ترى ما فيه ولا تبصره . لا يستلفت النظر إذ تدخله نساء تعدين الخامسة والأربعين كأنه بيت للعجائز . ومظهرهن لا يستلفت النظر . يقضين وطرهن ويخرجن . الشباب الذي يدخل لا يثير الانتباه ، فهو شباب فقير الحال .. أجورهم ضعيفة لا تكاد تسد الرمق . أنت معروف هنا باسم جرجس . ماريكا لا يمكن أن تنسى أبداً أنها تمتعت كثيراً بجرجس الفحل دون مقابل . أليس طباخ السم يتذوقه ؟ ..

تدخل السيارة إلى المزارع ، تخوض في الطريق المسفلت . لا تفكر في شراء سيارة يا صبري رغم أن النقود زاد حجمها في رصيدك . وتركب سيارة أجرة بالنفر . تعلمت من البخيل قواعد الشح ، وأتبعتها بدقة . لا يهون عليك أن تدفع مليماً في قميص

جديد أو بذلة جديدة ولكنك تتغذى تماماً حتى يمكن أن تقهر آلام السهر سواء في البيت وأنت منكب على المراجع أو في هذه المواخير العابثة .

تقف السيارة عند قصر آخر لا يسكنه إلا يهودي واحد . ومعه بعض الخدم الذين يعانون من شحه لكنهم محتاجون إلى قرشه . هل تذكر اليوم الأول الذي التقيت به بعد حصولك على بكالوريوس العلوم ؟ .. لم تحاول المرتبة العالية "جيد جداً" القريبة من الامتياز أن تزغلل عينيك بوظيفة معيد في الكلية . لم تكن مقتنعاً بهذه الوظيفة المحترمة . فقد ثبت عودك في المستنقع الآسن ، لذلك فضلت أن تبحث عن وظيفة في القطاع الخاص . وصادفت مكتب مزراحي ، ودخلته ولم تخرج منه . هل من المعقول أن ينهض الرجل مبهوتاً حينما تدخل عليه سائلاً وظيفة . ويبادرك قائلاً :

– أخيراً عدت يا إيزاك ؟ ..كنت أعتقد أنك استشهدت في حرب أكتوبر .

تقول له على الفور :

– أنا لست إيزاك ، أسمي صبري عبد المتعال . ويبهت الرجل للشبه الكبير بينك وبين إيزاك ابنه المهاجر إلى إسرائيل . لا يصدقك في البداية حتى تكشف له عن بطاقتك . وإذا لم تكن لديه وظيفة لأنشأ لك وظيفة ، فأنت تماثل ابنه في الملامح مثلما تدعي عقيلة هانم مرعي أنك تماثل ابنها في الملامح . لكن إيزاك هاجر

إلى إسرائيل . وأنت هربت من حياة عقيلة هانم . وما المانع أن يكون قد هرب هو الآخر وابن عقيلة هاجر !! ..

– ما هذا الذي سمعته يا ايزاك ؟ .. يقولون إنك منعت العمال من الاتجار في الدولار والإسترليني ؟ ..

– من قال لك ؟ ..

– – سليم بطبيعة الحال . ما السبب ؟ ..

– هذه أعمال مخالفة للقانون يا مسيو مزراحي . وأنا لا أتحمل مسئوليتها . وإذا كنت تريد أن تستمر فيها فاستمر فيها بنفسك .

– أنت حر يا ايزاك . تصرف كما يحلو لك .

– وسوف أوقف أيضاً القروض بالربا .. فذلك ممنوع .

تبدو علامات الضيق على مزراحي ولكنه يقول :

– لقد تركت الأمر لك تتصرف فيه .

– لن يبقى لنا إلا السمسرة في الأسهم والسندات وذلك أمر مشروع .

– ولكن ذلك لا يكفي .

– جئت إليك اليوم لتوافق على مشروع مربح يمكن أن يعمل فيه هؤلاء الذين اصبح عليهم ألا يتاجروا في الممنوع .

– عظيم .. عظيم .. تريد أن تضمن لهم الرزق بعد أن قطعته.

– أنا لم أقطع رزقهم ، ولكن القانون قطعه . وإذا سمح به القانون فسوف نعود إليه .

– ما علينا .. هات ما عندك .

– أريد أن توافقني على أن أقتطع جزءاً من العزبة .. هنا .. وأحوله إلى مزرعة لتربية الدواجن والأرانب .

– ستواجهك أهم المشاكل .. ألا وهي العلف .

الرجل طيع . سلمه شئونه . تبناه دون أن يسأله أن يقبل التبني . لعل الشبه الغريب بين ابنه وبينه كان الجسر الذي يربط بينهما . ولعل فقدان الأمل في أن يري ابنه كان من أسباب إعادة إقامة الجسر . رفض مزراحي أن يهاجر مع ابنه إلى إسرائيل . وانقطعت الصلة بينهما إلا من خلال خطابات قصيرة يرسلها إليه من عام إلى آخر ، حينما يكون مسافراً إلى روما أو باريس أو لندن . ولا يتمكن مزراحي أن يرد عليها لأنه لا يهوى السفر مثل ابنه . ولو أنه يكلف بعض الأعزاء بإسقاط خطابات مماثلة إلى ابنه حينما يسافر الأعزاء إلى الخارج . والابن يعرف بعد لأي أن الأب تلقى الخطاب الذي أرسله . والأب لا يختلف موقفه عن الابن . وحل صبري محل إيزاك ، بعد أن انقطعت الخطابات حينما اندلعت حرب أكتوبر . كان يعرف أن ابنه خاض غمار الحرب وحينما انقطعت الخطابات كاد الوهم أن يسيطر عليه أن ابنه قتل في تلك الحرب . وحينما لاح وجه صبري تعلق به مزراحي . واستخدمه في مكتب السمسرة ورعاه . بل قرر أن يترك أمواله له ، حينما يتأكد من وفاة إيزاك مزراحي . وبدأ الأمل يفرخ من جديد في قلبه حينما بدأت مفاوضات كامب دافيد .

هل يعود السلام ويرى من جديد ايزاك المهاجر . كان مزراحي يدافع بحرارة عن المفاوضات ، بينما صبري يحبذها لكن بشرط ألا تفرط في السيادة المصرية . أما إذا فرطت فهو يرفضها بإباء ..

ويدير العجوز المذياع الصغير في يده ليسمع إذاعة إسرائيل . إنه ينتظر نبأ عودة السلام بفروغ صبر . غير أن الإذاعة لا تقدم ولا تؤخر في الأنباء . ويدير المؤشر على إذاعة أمريكا . ويفاجأ بالنبأ ينساب منها . وقع بيجن والسادات اتفاقية كامب دافيد .

تنسال الدموع من عيني مزراحي ، وهو يقول : سأري ايزاك أخيراً . وقعوا المعاهدة يا ايزاك . . (لا يذكر اسمه الحقيقي لأنه عود لسانه على أن يناديه بذلك .) يتنبه ويقول : يا زكي سأرى ولدي عما قريب . لا بد أنه سيأتي إلى القاهرة وإلا سأذهب إليه في إسرائيل .

يصمت قليلاً ثم يسأل صبري دون أن ينتظر إجابة :

– هل هو لا يزال حياً ؟ ..

يا ترى ماذا سيكون وضعك يا صبري إذا ما ظهر ايزاك ؟ .. سوف يزول هذا الهيلمان وسف يتآكل الصولجان . وسوف تؤول كل الأموال إلى ايزاك . وسوف تكون له الكلمة الأخيرة . ستكون كلمته هي الكلمة النهائية . ويسمعه يسأل من جديد دون أن ينتظر رداً :

- أتراه حياً يا زكي ؟! ..
خلع من عليه لقب إيزاك .. أول الغيث .

الفصل :ثامن

يا عزيزي نحن رقيق

الماخور القديم تدخله لتتأكد من وجوده . بيت آخر من بيوت الريبة التي كنت تتردد عليها . لم تكن تدفن شبابك إنما كنت تجدده جئت اليوم لتدعو نساءه إلى التوبة . ما هذه الأفكار الجديدة التي تسيطر عليك ؟ .. لا بد أن جنوناً أصابك . كيف تعين نفسك منقذاً للبشرية دون أن يكون لك سند واحد من السلطة ؟ ..هل تعتقد أن واحدة من هؤلاء النسوة اللاتي يرتشفن كؤوس الخمر سوف يسمعن كلمة واحدة منك . هل تظن أنك قديس إذا ما سألتهن التوبة ، يسقطن تحت تراب قدميك ، ويطلبن الشفاعة والتوبة والبركة ؟ .. لا بد أن أدعوهن إلى التوبة ، قبل أن أبلغ الشرطة بأمرهن ، وإذا قبض عليهن متلبسات فلا يلومن إلا أنفسهن .

- كيف حالك يا ريري ؟ ..
- أنا بخير .. وأنت أين اختفيت فجأة ؟ ..
- جئت فقط لأمر هام .. هذه الليلة .
- ما هو يا عيوني ؟ ..
- جئت أدعوك أن تقلعي عن هذه الحياة الرخيصة .
- أتريد أن تتزوجني ؟ ..
- لا ..
- إذاً فكيف سأعيش ؟ ..
- ابحثي عن أي عمل شريف .

- وهل العمل الشريف يمكن أن يبتاع لي أحمر الشفاه أو الأظافر أو الخدود ؟ ..

- لا داعي للتجميل .. العمل الشريف ليس من مسوغاته التجميل .

- - يا عزيزي نحن رقيق .. رقيق أبيض أو أسمر أو حتى زنجي ..

- يجب أن تتخلصي من هذا الرق .

- ليس هناك سبيل فقد سقطنا في الدوامة ، وهي تلعب بنا ، وسوف تستمر تلعب بنا حتى تبتلعنا .

- وإذا قفل هذا المكان .

- سأضطر إلى الأنتقال إلى مكان آخر .

- وإذا شمع المكان الآخر بالشمع الأحمر .

- سأبحث عن مكان آخر .

- أنت تغامرين باستقرارك وطمأنينتك . قد يقبض عليك وتسجنين .

- وماذا يفيد العبد أن يسجن في بيت سيده أو في بيت سيد سيده ؟ ..

يترك ريري متجهاً إلى ميمي . اختارت كل واحدة اسماً للتدليل حتى تتستر وراءه ولا يكشف اسمها الحقيقي .

- ما نهاية هذه الطريق يا ميمي ؟ ..

- نهايتها معروفة .. خسارة .

- ألا تهربين من الخسارة ؟ ..
- نحن يا عزيزي سمك يعيش في ماء مستنقع مر . أو لا تقل سمكاً . إنما قل نوع من الكائنات يقتات من المستنقع .
- وإذا نقل منه إلى نهر عذب ..
يموت .. يموت .. تزدرد كأسها وتعرض عنه بحثاً عن صيد آخر . لم يعد ذلك المدعو حمدي صالحاً . يبدو أنه تاب توبة نصوحة . وإذا تاب فما الذي أتى به ؟ .. هل تحول إلى واعظ ذلك الأبله ؟ ..
تقوده قدماه إلى شيخة الرقيق . هل معقول أن يقول لها توبي ؟ ..
هل معقول إن يقول لها سوف أبلغ عنك الشرطة لتتخذ ضدك الإجراءات القانونية ؟ ..
يبدو أن من المستحيل أن يعظ أهل النار لأنهم لن يتوبوا ولن يرتدعوا .
- فيما تفكر يا حمدي ؟ ..
- أفكر في هذه الحياة الغريبة ! ..
- كيف هي غريبة ؟ ..
- نشرب الخمر ونعرف أنها سوف تتلف الكبد . وتمزق أمعاءنا بالقرحة . وندخن ، ونحن نعرف أن نهاية المطاف إما مرض رئوي أو ذبحة صدرية أو سرطان قاتل . ونتهالك على

المتع ، ونحن ندرك أنها قد تأتينا بأمراض خبيثة . فلم نشرب وندخن ونتهالك ؟ ..

– ما هذا يا حمدي ؟ .. هل غيرت الصنف ، وأصبحت الآن تشم ؟ .. أم أنك مريض بمرض قاتل .. أنت مريض بالإيدز يا ولدي ؟ ..

– لا هذا ولا ذاك .

لا يتمكن من أن يعظها . يعرف النتيجة سوف تتحداه . وتصرخ في وجهه وقد تأكدت أن لا فائدة منه وعليه أن يغادر المكان . أو تتركه يخرف .. لا يمكن أن يكون واعظاً وبالتالي لا يمكن أن يكون منقذاً .. يكفي أن يعظ نفسه وأن ينقذها من ذلك المستنقع . يرفض سيجارة تقدمها له . وكان شرهاً في تدخينه . ويرفض كأساً تقدمها له ، وهي تضحك ضحكة خليعة يسيل لعاب الرجال من بعد سماعها .

يغادر المكان ، واليأس قد رابط على قلبه . إنهم لا يعرفون ذلك الذي منعه من التدخين ، وحرم عليه الكأس ، ومنعه من غزو أسرة اللذة ، وجعله يرمي الورق من يديه . لا يعرفون الحادث الذي هزم لاعب المتناقضات وجعله يهاجر من المستنقعات الآسنة .

الفصل التاسع
حصن الأمان

– هذه الشقة الصغيرة لا يجوز لك أن تتنازلي عنها يا دادة مبروكة . هذه حصن الأمان لك . . فالإنسان قد يتغير ويتبدل وقد لا ترضين عن تصرفاتي وتقولين لي عن إذنك إني راحلة. فترحلين إليها .

تقول مبروكة بضعف :

– استغفر الله يا ولدي .. أنت كريم ابن كريم . أنت أصيل تعاملني كأمك .

" إلا دادة مبروكة هذه التي لا أستطيع أن أكف عن نطقها . ولكن لساني تعود عليها . أريد ألا أشعرك أبداً أن هناك فرقاً بيننا غير أن لساني لا يطاوعني . أريد أن أقطعه وهو ينطقها ولكنه تعود عليها . "

ويقول : هيا بنا يا خالتي إلى الشقة الجديدة . استقدم سيارة أجرة ، ووضع فيها حقائب الملابس : " تصر أن تستمر بملابسك القديمة . لم لا تجدد . ألا سبيل للخروج من ربقة الفقر التي تغل تصرفاتك . أنت لم تعد فقيراً . لم تعد حتى في حاجة إلى مزراحي ، ولكنك دائماً تحسب خطواتك . ويؤذيك أن تصرف قرشاً في غير مكانه . "

يضع الحقائب في حقيبة السيارة ويقول :

– الهرم .. يا أسطى .

هو يعرف أن المنطقة لا تخلو من البعوض ، لكنها الوحيدة التي وجد فيها شقة خالية . والشوارع لا تزال بكراً لم يمسسها الأسفلت . وعلاها تراب ورمل وبقايا أبنية .

تدخل المرأة بقدمها اليمنى من عتبة الباب ، وهى تبسمل . وتفاجأ بأثاث لم تشهده من قبل .

تتساءل المرأة : هل هذه شقتك يا سي صبري ؟ ..

يقول : نعم .. شقتي .

– وهذا أثاثك .

– نعم أثاثي .

– هل هذه شقة مفروشة ؟ ..

– وما حاجتي إلى شقة مفروشة . يجب أن تعلمي يا خالة مبروكة أن هذه الشقة ملك خالص لي . لم يعد هناك أحد يؤجر شقة في عمارة ، لذلك اشتريتها من حر مالي . حرمت نفسي كثيراً وآن الأوان أن أتمتع . وتتمتع معي الأم الحقيقية التي كفلتني كل هذه السنين .

تبكي المرأة وهى تقول :

– أنت مثل ابني الشهيد ، فكيف تقول ذلك ؟ .. لو كان عبد المولى عاش حتى ذلك الوقت لكان أكبر منك .

يسألها كأنما يغير الموضوع الحزين :

– ومادام هو ابنك الوحيد يا خالة مبروكة فكيف دخل الجيش ؟ ..

- لم تكن هناك وظائف خالية لحملة الإعدادية ، فالتحق بالجيش متطوعاً . استشهد في حرب يونيه . أبوك - الله يرحمه - طارد رجال المعاشات حتى قرروا لي معاشاً . وكانوا يتلكؤون مثلما يتلكؤون في كل زمان ومكان .

ينظر إليها بإمعان ويقول :

- هل أقول لك شيئاً ؟

- قل يا ولدي .

- لقد مات المعلم كرشه زوج أمي ..

تشهق المرأة وتتساءل : هل هذا معقول ؟ ..

ثم ترمقه وتتساءل : كيف عرفت ؟ ..

يتركها في الصالة الواسعة ذات الأثاث المزدحم ، ويفتح باب إحدى الحجرات المطلة على الصالة : تعال يا خالة .. انظري هذه حجرتك .

تتبعه المرأة بحذر ، ثم تنظر إلى داخل الحجرة وتسأل :

- معقول ؟ ..

ثم تلتفت إليه وتقول :

- ألم يحن الوقت لكي تذهب إلى أمك وتصالحها وتدعوها لتعيش معنا ؟ ..

يخرج إلى الصالة ، ويجلس إلى مقعد مريح وثير ، ويقول :

- لا أعرف .. لا أعرف .

يضـع رأسه بين يديه . وهو غارق في بحر متلاطم من الحيرة . لم يكن سهلاً أن يعفو عنها . امرأة لم تفعل شيئاً لحماية ابنها من وحش غادر . وماذا كان لـزم أن يفعل ليحارب عملاقاً ؟ .. ألا تتعقل الأمور ؟ .. لم يكن أمامها إلا أن ترفض الزواج وتستمر أرملة .وكيف كانت ستعيش ووالدك لم يترك حتى معاشاً استثنائياً . مات في ريعان الشباب وترك أرملة في حاجة إلى رجل . كانت عليها أن تدرك أن ابنها سيتوظف بعد سنة أو اثنتين . وهل تتصور جوعاً خلال هاتين السنتين ؟ .. ويصرف فكره عن حديث هذه المشكلة ويقول :

– افتحي الثلاجة الآن وستجدين فيها لحماً وخضراوات واختاري ما تشائين . واطبخي لنا ، فأنا جائع .. جائع .. جائع ..

– حاضر يا ولدي .

رغم أنه كان عبئاً عليها زهاء شهرين ، غير أنها قبلت هذا العبء ، تعويضاً عن الشهيد الذي مات في حرب يونيه . ورغم أن مزراحي لم يكن في حاجة إلى أولاد ، غير أنه وجد فيه ابنه الذي هاجر إلى إسرائيل . ولعل إيزاك هو الذي قتل عبد المولى وهو لا يدري ! .. لقد تعامل مع المتناقضات ، وها هو يكتشف متناقضاً آخر .يعيش في كنف الأم الرؤوم والمرابي الكبير . يحيا مع الحنان والقسوة في وقت واحد . مع راعية لكل القيم وناكر لها لكن جاء الوقت لينهي هذا التزاوج بين المتناقضين . ولعله سر

كبير لن يبوح به لأحد ذلك الذي جعله يطمس معالم هذه الحياة القديمة ويسير في طريق واحدة .

تمضي مبروكة إلى المطبخ تبحث عنه في الشقة الواسعة . لم تسأله ماذا يعمل ؟ .. ولكنها كانت تحس أنه يعمل عملاً مهماً . كان يدخل عليها بالخيرات ، وكثيراً ما اشترى لها ملابس مختلفة لكنه لم يكن يغير زيه إلا نادراً .لم يكن يبخل عليها وإن كان يبخل على نفسه . ولم تجد تفسيراً لذلك . وآثرت الصمت إذ ليس من حقها أن تناقشه في مصدر ثروته .

حينما ينتهي من تناول الطعام ، يكون فكره قد اضطرم ما فيه الكفاية ، وتبلور أخيراً وقرر أن يذهب إلى أمه يدعوها لتسكن في داره . إذا كان سيحارب الرذيلة في أي موقع تندس فيه ، فعليه أن يفعل الفضيلة بكل عناصرها . وصلة الرحم من الفضيلة .

ارتدى ثيابه، ليخرج إلى الشارع . ثياب جديدة لم يشهده بها أحد . وأخذ طريقه إلى العباسية .

سار في شارع عشرة وسط الحوانيت الكثيرة مختلفة الألوان . وأنحرف في حارة ، تلك التي طالما تنفس هواءها وترابها وأنفاس الناس فيها . سيدعوها أن تأتي إلى حصن الأمان الذي أمتلكه . وأن تسكن في كنف الابن الذي تعذب ، وأن تهجر الدنيا التي أظلمت في وجهها .

الحارة تتلوى أمامه . يعرفها جيداً . ثعبان أهتم الضرس . لا يضر ، ولا يفيد . الشمس في الشارع حارقة . والحارة يغطيها

الظـل بحنـان . والظـل يضـع يـداً بـاردة علـى كـل وجـه يدخـل الحارة .هذا هو البيت يعرفـه جيـداً ، فطالمـا جـاء يريـد أن يقبـل الأعتـاب ويطلـب السـماح ، يعـود صـاغراً ، بعـد أن يـأس مـن الطريق الملـيء بـالطين الأسـود . غـير أنـه يرتـد مذعـوراً حينمـا يتذكر سخافات المعلم كرشه وسـخرياته القاتلـة . وقسـوته التـي لا تنطق بمنطق لهـا غـير الإيـذاء . جـزار يتلـذذ بتعذيـب الضحيـة . طرق الباب فلم يجب أحد . ولم يجد بداً من أن يسأل عنها .. عـن أمـه .. عقيلـة هـانم مرعـي . وتفتـح لـه جـارة مـن الجـيران بابهـا وطفل في يدها . وتصرخ قائلة : من صبري ؟ .. هل معقول أنـه لم يتغير لهـذه الدرجـة ، وأن ملامحـه ثابتـة ، بـل لـم تطمـس مـن ذاكرة النساء .

تدخله إلى بيتها لا تخش رجلاً يؤذيها بكلمة ، فهي حرة تستقبل حراً . وتسأله :

- أين كنت ؟ ..

ويسألها : أين أمي ؟ ..

- هل هانت عليك أمك لهذه الدرجة ؟

يمرض صبره ، ويصاب بالكساح ، فيصرخ متألماً لعله يفلت من هذه الحالة :

- أين أمي ؟

وكأن المرأة لا تسمع سؤاله ، فتعاتبه على هجر أمه :

- تقطع قلبها عليك بهذه الدرجة يا كبدي .

تفيق لسؤاله وتقول : لا أعرف !! ..
- كيف لا تعرفين .. هل تركت الشقة ؟ ..
تقول : ألا تعرف أن المعلم كرشة مات ؟ ..
- سمعت ! ..
- لقد ورثت من ورائه مالاً كثيراً . وقفلت الشقة ورحلت إلى شقة أخري . يبدو أنها تحتفظ بالشقة حتى إذا ما تبدد المال عادت إليها .. أو لعلها حجزتها لك .. وأين أنت يا بني ؟ .. وكيف تعيش ؟ ..
شاهد صبري أطفالاً كثيرين ينظرون إليه من خلال باب موارب . جيش من الأطفال . هذه المرأة تزوجت بعد أمه بسنة ، وقد تمكنت أن تعد هذه الكتيبة البشرية في خمس عشرة سنة . وأمه لم تتمكن أن تنجب أخا واحداً في هذه السنين . وهذا هو طفل رضيع نائم على كتفها حرارة الجو أخمدته . ونام وفي عينيه دموع .
- ألا تعرفين أين أجدها ؟
- وكيف أعرف ؟ .. أمك لا تود أحداً .

الفصل العاشر
الشمع الأحمر

- من أنت ؟
- أنا فاعل خير .
- وماذا تريد ؟
- أريد أن أبلغك بأسماء التجار الذين يتاجرون في العملة الصعبة ، وهؤلاء الذين يعاونونهم . صبيانهم .
- ولم لا تأتي وتتكلم معنا ؟ ..
- أنا أفعل الخير للبلد ولا أريد أن أزج بنفسي في الموضوع . إذا كنت تريد أن أرشدك فأهلاً وسهلاً . وإذا كنت لا تريد فأسمح لي أن أقطع الاتصال . وثق لو طالت المكالمة فلن تعرف من أي مكان أتكلم لأني أتكلم من هاتف عمومي .
- إذاً قل لي على الأسماء والعناوين .
- وسأقول لك كيف يمكنك أن تضبطهم وأين يخفون العملات الصعبة ؟ .

" هل خائن الخائن يعد خائناً ؟ .. لا أعتقد لأن شاهد الملك في قضايا المخدرات ليس مذنباً ويطلق سراحه . "

" أثلجت صدري تلك الفتاة . مثلما غم صدري وأنا أبحث عن هذه الأم الشاردة . وأقاوم ذلك اليهودي المقيم في قلب الريف .

ولا أعرف هل سأكشف عن مقرها الدفين . وهل سوف اتخلص من الشح الكثيف الذي أعيش فيه ؟ .. "

- من أنت ؟
- أنا فاعل خير .
- وماذا تريد ؟ ..
- أريد أن أبلغك عن وكر للميسر لا يعرف أحد مقره .
- وما اسمك ؟
- -اسمح لي أن تعفيني من ذكره .
- وما هي مصلحتك ؟
- تحقيق الصالح العام
- هل كنت تلعب هناك ؟
- لا .. ولكني عرفت مكانه بمحض الصدفة .

" أنت تخون الترزي الكبير هكذا . لقد فتح لك الرجل وكره ولعبت وكسبت . وطبقت ذكاءك في معركة القمار وكسبت هؤلاء الذين تبلغ عنهم لطالما كسبت منهم في بيع العملة الصعبة وشرائها . ودخلت جيبك مكاسب كثيرة . . إن الحادثة لا تزال تؤثر فيك . جعلتك تتحول ضدهم جميعاً مع أنك كنت منهم . هذه الحادثة غيرت مجرى حياتك . لا .. لا .. لقد انتشلتني من المستنقع وجعلت حياتي جنة وارفة . لكن ما علاقة تلك الحادثة بهؤلاء الذين فتحوا لك أبواب بيوتهم . كلهم مجرمون . "

- من أنت ؟ ..

– أريد أن أتصل برئيس شرطة الآداب .
– من أنت ؟ ..
– أريد أن أبلغ حضرة الضابط المختص عن بعض بيوت الدعارة الموجودة في القاهرة .
– تفضل .. أبلغ .

" يجب على من يعرف عشاً لمنكر أن يبلغ عنه الشرطة ، مهما كانت علاقاته الحميمة بهذا العش . "

بعدت المسافة الآن بين ميدان الأوبرا و شارع الملك فيصل في الهرم . وإذا كانت المسافة الآن بعيدة قيراطاً فإن الزحام يجعلها بعيدة أربعة وعشرين قيراطاً .

يدخل إلى العمارة القديمة الواسعة ، يصعد درجات السلم المتهالكة المهشمة المتربة ، يعبر الدورين الأول والثاني . يلاحظ في الدور الثالث أن الشمع الأحمر قد ألتصق بباب الترزي الكبير . ناديتك للتوبة فلم تلب النداء فما ذنبي ؟ ..أنا لم أجبرك على الاستمرار في طريق الخطأ .

نفس العمارة التي دخلها كثيراً ذات المدخل الرخامي الرائع . تبدو ساكنة صامتة قليلة الحركة في مدخلها . يطلب المصعد بهدوء . يفتح بابه بسرعة ، ويدخل ليقفل بابه بخطى الريح . في الدور السادس ، يعود ليفتح الباب ، يخرج قبل أن ينزل .. يترك قدمه تعوقه عن النزول . يشاهد الشمع الأحمر قد ألتصق بأحد الأبواب في الدهاليز القريبة . ينتشي . ينزل بالمصعد من جديد

يخرج وهو ثابت الخطى يـترك فكـا المصعد قبـل أن تطبـق علـى جسده . يتأمل وجهه في مرآة عند مدخل العمارة . "دعوتها للتوبـة فلم تلب فماذا أفعل ؟ .. لقد قررت أن ينتهي عصر الإجرام بكل أنواعه ، وهذا هو يظهر في لون أحمر يلتصق بالأبواب . "

" عجيبة هذا البـاب خـال مـن الشـمع الأحمـر " .يطـرق البـاب الطرقات المتعارف عليها . وتفتح بثينة .

– أهلاً وجدي . أين أنت ؟ ..

لا يبدو مظهرها أنها عجوز تجاوزت الستين .

– أين رأفت ؟

– تجده عند البار . ضع لك كأساً على حسابي .

– ممنون يا هانم .

" غريبة أن أحداً لم يهاجم هذا البيـت ويقبـض علـى أصحابـه . هل تكون هذه المرأة لها اتصالات تحـول دون القبـض عليهـا ؟ .. أم أن الشرطة داهمت المكان ولم تجد إلا أناساً يشربون الخمـر أو أبلغوها أن تخفي الخمر قبل المداهمة حتـى تفلت مـن الاعتقـال أم أن شـرب الخمـر ليـس جريمـة ؟ .. أليسـت هـذه خمـارة بـلا ترخيص . أم أن الشرطة اعتبرت الأمر جلسة عائلية يتبـادل فيهـا أصحابها الأنخاب ؟ ! .."

– أهلاً رأفت . هل ما زلت تعبي الكؤوس في جوفك ؟ ..

– أهلاً وجدي . هل تشرب ؟ ..

– لا .. أعفيني . جئت فقط أسأل عنك .

- لم تعودني على هذا الغياب .
- أبداً كنت أبحث عن أمي فلم أجدها . وكنت أؤثث شقة شغلتني عنك . وهناك مشاكل سوف تظهر لي في العمل أريد أن أجد لها حلاً . وما أخبارك ؟ ..
- أبدا .. لا جديد . نوم حتى الخامسة . وسهر حتّى الخامسة . كأن بثينة تتعمد أن ينتهي كل شيء عند الخامسة . وهي تشير بذلك إلى خمسة وخميسة في عين العدو .
- هل حسدكم أحد ؟ ..
- ومن سيحسدني .. وتعويذتها قاتلة .
يريد أن يسأله عن مداهمة الشرطة للشقة ، ولكنه يتجاهل أن يروي له الأحداث الخطيرة . يريد أن يعرف ويبدو أن الآخر لا يعرف شيئاً . " يبدو أن البلاغ أُلقي به في سلة المهملات . المهم أن باقي الأوكار قد شمعت بالشمع الأحمر . لا بأس أن يفلت واحد منها . "
غير أن بثينة لا تتركه ينفرد برأفت . تتقدم منه وتقول :
- وجدي . أريدك .. في كلمتين .

الفصل الحادي عشر
عودة البخل

يدخل عليه مزراحي ، ووجهه قد أزداد احمراراً ، وعيناه ترقصان فرحاً ، وهو مستغرق في مراجعة حسابات العمل ، ويشده قائلاً :

- تعال ؟
- إلى أين ؟
- ابني سيصل اليوم من إسرائيل .
- هل ذلك معقول ؟
- هيا بنا نستقبله في المطار يا زكي . لأريك مدى الشبه بينك وبينه .
- وكيف اتصلت به ؟
- سألت السفير الإسرائيلي أن يبحث لي عنه ، فوعدني . ثم أخطرني أن الولد لا يزال يذكرني . وأن عودة العلاقات بيننا وبين مصر ..(وهل كانت هناك علاقات يا أيها الخائب ؟) ستسمح له أن يأتي إلى زيارتي . هيا .. هيا .. أترك ما في يدك .
- وهل استأجرت سيارة أم ستذهب إلى المطار بالسيارة العمومية رقم ٤٠٠ .
- هل هذا وقته يا زكي . هل تسخر مني ؟

هذه هي الطامة . يعود الابن وتتضاءل عاطفته نحوي وبعد ذلك يرفسني بحوافره الحديدية . لكن ذلك أبعد مما تتصور يا

خواجه مزراحي . لن أعود للضنك مرة أخرى . لقد أعددت لذلك اليوم عدته . ولن تتمكن أن تقضي على مستقبلي .

هذا المزراحي لا يأتي من ورائه الخير . إن الحادثة التي غيرت مجرى حياتي حدثت حينما كنت في زيارته . ولو أنها حادثة بغيضة غير أن نتائجها كانت محببة إلى قلبي . يومها جلس مزراحي يحاسبه بالسحتوت كما لو كان لصاً يسرق أمواله . وهو يدرك أنه أمين لا يخون . والغريب أن يكون ذهنه صافياً ، وقدراته خارقة ، وهو يتعدى السبعين من العمر . وكانت الشمس قد تعجلت في الرحيل اليومي ، فاختفت عن الأنظار مبكراً . وخرج يلتمس سيارة أجرة . وكانت السيارة قد ركبها النحس ، فأوقفتها عصابة ملثمة . اقتادوا ركابها جميعاً إلى حظيرة بهائم قذرة . وبين روث البقر ونعير الجاموس وثغاء الماشية مضى الركاب ينتظرون قدرهم . إذ عادت العصابة ولم تجد زعيمها في الدار فاستكسلوا أن يفتشوا الضحايا من أهل الفقر والضنك وانتظروا أن يضع الزعيم ختم يده على الضحايا . ويبدو أنه يتشكك في ذمتهم ، فأرادوا أن يثبتوا له بالدليل القاطع أن الضحايا لا يملكون إلا أجرة السيارة . كانت ليلة قاتلة . قتلت فيه كل رغبة في ارتكاب المعاصي . فهكذا تعذب المعاصي بني البشر دون سبب جنوه .ألا يدرك هؤلاء المجرمون كم تعذب الركاب الخمسة ومعهم سائق السيارة وهم يفترشون أرض الحظيرة والروائح الكريهة تزكم أنفاسهم انتظاراً لتشريف الزعيم الغائب . ويبدو أن

هناك ثأراً بين الزعيم وأحد الركاب لذلك عمت السينة ولم تخص الراكب المجهول . كلما جلس بجانب مزراحي يتذكر هذه الحادثة المهينة ويشم رائحة الروث في أنفه .وقد كان يحاول أن ينسى الحادثة لكن وجود مزراحي يذكره بها .

واقتيدوا جميعاً لدار زعيم العصابة للتفتيش . ونهبوا مصاغ امرأتين وخلعوا ساعات وخواتم واستولوا على محافظ الركاب الآخرين . أما هو فلم يجدوا معه شيئاً تماماً ولا حتى خاتماً ذهبياً أو ساعة أو حافظة نقود . وجدوا معه عشرة قروش ورقية . فما كان حظه إلا أن أمر رئيس العصابة الأثيم بضربه حتى يقر أين خبأ النقود . لم يتصور أن يمشى إنسان خالي الوفاض . هل من المعقول أن يمشي أحد الناس وعشرة قروش في جيبه فقط ؟ .. وكان الأمر يمكن أن يسير سهلاً ليناً ، لكنك تطاولت عليهم بالكلام ثم بالأيدي ، فما كان منهم إلا أن أوسعوك ضرباً وشتماً وركلاً .وقررت ساعتها أنك لو فلت من هذا الضيم فسوف تكون وبالاً على المجرمين . القتلة والسارقين وتجار المخدرات والعملة وأصحاب البيوت التي تمتلئ بالريبة والتي تتاجر في أعراض النساء والتي تدار للميسر .

ألقوا بك في حجرة عارية ، يبدو أنها حظيرة للبهائم ، فقد زكمت رائحتها أنفاسك ، وقد داهمتك إغماءة شديدة من أثر الضرب المبرح . وأفقت عندما غشت الرائحة صدرك ، وعند الفجر طاردتك تلك الصحوة ، وصممت أن تنقذ نفسك . وتلفت

حواليك فلم تجد أحداً . وكانت العتمة لا تزال تعم المكان . وتحسست ببطء الجدار حتى بلغت شباكاً عالجته فأنفتح . ويبدو أن تقديرهم أنك لن تفيق حتى الصباح . وقفزت . ومضيت تجري . وتجري ، وأنفاسك تلهث . وتردد بينك وبين نفسك أن انتقامك سيكون رهيباً .وأنت عائد إليهم لا محالة . وتحسست أنفك فوجدت الدم قد تجمد في منخاريك . وشفتك قد تورمت . هل هي سبة أن تكون خالي الوفاض ؟ .. ما ذنب الشخص إذا كان فقيراً أو لا يحمل نقوداً معه أو مجوهرات . لا تخدع نفسك . لقد تطاولت عليهم ولا يرضى مجرم أن يتطاول عليه أحد وإلا سفك دمه جزاء لهذا التطاول .

كانت الحقول ممتدة أمامه ساعة خروجه كأنها لن تنتهي . والفجر يدبدب بنسائمه الندية على صفحات المزروعات فتتموج . وهو يخب خباً لم يعهده جسمه الضعيف . السفلة أهدروا كرامته لا بسبب إلا رغبتهم في المال الحرام .ولعلهم قيدوهم حتى يصل الزعيم ليمعن في ضالته من بين الركاب .

حينما ركب سيارة في الطريق . لم يتأكد أين المكان ؟ .. كانت القروش العشرة لا تزال في جيبه . ألقاها في وجهه أحد اللصوص قطاع الطرق . وبصق في وجهه لذلك يتمكن من ركوب السيارة ويدفع أجرتها ويهرب من موقع الجريمة الذي فقد أثره . شعر ساعتئذ أن الحرقة تجتاح صدره . وداهمه النوم وهو يجلس بجانب السائق . وحينما استيقظ عند وقوف السائق في نهاية

المطاف كان الصبح قد أشرق . والشروق قد وضع يديه على الدنيا فقلبها ساحرة الوجه لكن وجهه جعل السائق يتأمله بعمق فقد كانت سحنته قد مُسخت .

زالت الآلام بعد ذلك غير أن الحادثة علقت بذهنه ، وأججت رغبته في الانتقام من الأشرار أياً كان موقعهم .ولما تماثل للشفاء من النزف والأورام ، أخذ عهداً على نفسه أن يتوب عن ارتكاب الموبقات وأن يدعو الآخرين للإقلاع عن ارتكابها وإلا تعرضوا للعقاب .

تذكر أنه يجلس بجانب مزراحي . وهما يركبان السيارة رقم ٤٠٠ . لقد عاد إلى البخل من جديد ولكن قد يركب سيارة أجرة عند العودة خجلاً من ابنه أن يعايره أنه لا يزال يعيش في حالة البخل التي لا تنتهي . إن بخله كان وجه المصائب . لقد جاءت له هذه المصيبة التي أولها مر وآخرها حلو من وراء احتجازه إلى تلك الساعة المتأخرة ليحاسبه على السحتوت . وهل قدوم نجله مصيبة جديدة ؟ ..

الفصل الثاني عشر
قناع الحنان الزائف

غرق الأب العجوز في أحضان ابنه الفتى وهما يلتقيان في المطار ، وعجزت شيخوخته أن تكبح جماح الدموع . والابن جامد العواطف ، لقنته الهجرة درساً لا ينساه في وضع الحب والحنان في أقفاص جامدة . وصبري عبد المتعال واقف ينتظر دوره في الشد على يد شبيهه .يبدو أنه كان يشبهه حينما كان فتى هزيلاً مثله . أما الآن فهو رجل ضخم الجثة ، عيناه العسليتان تختفيان وراء جفون منتفخة .وأنفه المدبب الصغير يندفن بين خدين سمينين بارزين يخفيان الأنف في أحضانهما .وشعره يكاد يأكله التصحر الذي غزا رأسه . وبدنه امتلأ كزكائب رمل تُرتب لمعركة حربية قادمة . بل إن ما يختلفان فيه هو هذا الزهو وتلك الخيلاء اللذان نزلا بهما من الطائرة . الغازي الفاتح جاء يفتح البلد المقهور . أين إذاً مقبرة الغزاة ؟ .. لقد جعلها الحاكم موطناً الغزاة ! ..

ويسمع مزراحي يقول :

– هذا زكي ساعدي الأيمن .

يقولها بلا حنان ولا حب . كأنما الغريب أخذ كل دفقات الحنان وأمتص رحيق الحب .

– كلمتني عنه في خطاباتك يا أبي .

يشد صبري على يد إيزاك ويسلمها له في تراخ .ويقول :

- أهلاً وسهلاً .

ولم يقل في بلدك : " أنت قد فصلت منها باستيطانك لفلسطين . هل من الممكن أن يخلعه ذلك الغريب ويحل محله ؟ .. لا بد أن اليهودي سيسلمه كل ذقنه وينتف ريش الديك القديم . . ولكن صبراً . لا يمكن أن اسمح بتحقيق هذا الأمل . فماذا أنت بفاعل يا حيلة أمك ؟ .. لا تسلني الآن . سلني حينما يبدأ مزراحي تنفيذ مخططه ."

يركبون سيارة أجرة . ويسأل ايزاك :

- هل كل هذه الملايين يا أبتي ولا تزال تركب سيارة أجرة ؟ ..

- هذه الملايين لك يا إيزاك . لم أفرط فيها من أجلك ، كنت أعلم أنني سألتقي بك يوماً ما .

- هذه صدفة يا أبتي . فكدت أموت في حرب أكتوبر ، لولا عناية الرب .

- أحسست بذلك يا ولدي . أحسست بآلامك .

- نقلت إلى أمريكا وتم علاجي هناك . هل تعتقد أن هذه السمنة التي أعاني منها لحم وشحم ؟ .. أبداً . إنها ماء تراكم من حقن الكورتيزون التي اضطر الأطباء إلى حقني بها .

- وكيف حدث ذلك ؟

- مصري تصنع الموت وأنا أمر على جثث المصريين أتفقد الأحياء منهم ، ومررت بجانبه وهو يدعي الموت ، فنهض متحفزاً

يطعنني بالسنكي . ولولا أن عاجله أحد الزملاء برصاصة أودت به لأستمر يطعنني حتى مت .

– وأين كانت الطعنة ؟

– في جانب من جوانب الرئة اليمنى . بعيداً عن القلب ، لذلك ستر الرب . ونقلت إلى تل أبيب . ومن هناك نقلت إلى أمريكا . كنت أريد أن أكتب إليك ولكن خفت عليك من الفزع بالإضافة إلى أني لم أكن أقوى على مسك القلم .

– وهل تزوجت ؟ ..

– طبعاً .. ولدي ولدان .

– عظيم .. عظيم . سلالة مزراحي ستبقى إذاً .ولم لم تأت بهما وبزوجك ؟ ..

– زوجي تعمل في القوات المسلحة .. مشغولة . أما أنا فقد تقاعدت وأنوي أن أعمل في السمسرة مثلك . والأولاد في المدارس . . في الصيف سوف يأتون إليك .

يضحك مزراحي ويقول :

– وقد أذهب إليكم في إسرائيل . الحدود فُتحت الآن .

يتألم صبري عبد المتعال لكلامهما ، غير أنه يكتم في صدره الألم . "هذه هي الفكرة الصائبة أن يرحل مزراحي ويترك له الميدان يلعب فيه وحده . "

تمر سيارة الأجرة بالقرب من قصر ماريكا . يا ترى هل عرفت الشرطة المقر وتم تشميعه بالشمع الأحمر ؟ .. لقد نسيت

أن أبلغ عنه . لم يرد في خاطري . لعل أحداً لن يقتنع أن في مصر بيتاً يُدار للتسرية على العجائز .

– إلى أين يا أبي ؟ ..

– أقيم الآن في الريف ، بعيداً عن ضجيج المدينة . لا تعرف كم هي تلوثت بعادم السيارات والقاذورات . أصبحت لا أطيق السكن في شقتي في شارع سليمان باشا .

" هذه لم تسمع بها يا صبري أفندي . وتدعي أنك وضعت الرجل في جيبك . يبدو أن ذكاءك محدود الإمكانيات . "

ويسمع الابن يسأل الأب :

– وهل زكي سيأتي معنا ؟

– أريده أن يأتي حتى تتوثق علاقتكما معاً . وتعرف منه أسرار العمل . أنت الآن هنا وعليك أن تدير كل شئ أملكه .

يسقط قناع الحنان الزائف . حينما يظهر الأصل يختفي البديل . كان يفرغ عاطفة الأبوة في المدعو زكي . والآن يريد أن يفرغها في ولده إيزاك . . رفائيل مزراحي . حب محدود الزمن بديل لحب لا زمن له . هل من الفضيلة أن يستمر يعمل مع هذين اليهوديين ؟ .. لقد علمته الحادثة أن يكون ناراً على المجرمين . لكن هذين الاثنين لم يصدر منهما إجراماً بعد . حينما قرر أن يكف عن بيع العملة في السوق السوداء ويمتنع عن الإقراض بالربا وافق مزراحي وامتنع ، فلم يدخل رفائيل

مزراحي في قائمة المجرمين التـي أعدها والمطلوب منـه التبليـغ عنهم .

كانت عيناه تترصد الطريق تبحثـان عن مكـان الحادثـة ، تلـك التي قلبت حياته رأساً على عقب . لو كان يعرف أين المكان على هذا الطريـق لأبلـغ عن العصابـة السـافلة . ولكـن غبشـة الفجـر وعجلة الخوف والخب في الغسق لم تسمح بمعرفة المكان فالعيون لا ترى في الظلام . ولم يعرف كيف يتوصل إليه . لكنه لا يمكـن أن يترك ثأره يضيع .. لا بد أن ينتقم من هؤلاء المجرمين . لكنـه مشغول الآن بظروف جديدة ، ولسوف يأتي اليوم الـذي فيـه ينتقم من هؤلاء الذئاب .

لم يرتح كثيراً إلى إيزاك . بـل شعر بكراهيـة حادة تجتاحـه نحوه . هل يكون السبب أنه يكره نفسه ويجد في إيزاك قرينه ؟ .. أم أنـه لا يرتـاح لليهود ارتياحـا كـاملاً . كـان فيمـا مضـى يعـامل مزراحي بحذر ، كان الحـذر نبراسـه فـي معاملاتـه لذلـك اكتسب ثقته لأن رفائيل مزراحي ظن أن الحذر هو الاحترام لشخصه .

وشعر أن إيزاك يغير منه وتأكل الغيرة قلبـه وتنهش فيـه دون أن يحاول ستر معالمها أو تفاعلاتها علـى وجهـه . ويسمعه وهـو في تأملاته يغوص يقول :

– اعتقد أن غداً نتقابل في المكتب .

يقول صبري بسرعة :

– هذا أمر لا شك فيه .

الفصل الثالث عشر

الوجه الآخر

غاب عن الكلية فترة طويلة . يشعر وهو يدخلها بحنين جارف إلى العلم . كان قد سلم الأستاذ المشرف أجزاء من رسالته للدكتوراه ليراجعها ، ولم يمر عليه . " هذا وجهك الآخر يا صبري عبد المتعال . طالب علم . ولو أن وجهك أمام الناس طالب لذة ومال . ولم ؟ .. ألست أظهر أمام الخالة مبروكة طالب علم أيضاً . ولكنك تغيرت الآن منذ الحادثة المشئومة . لا .. ولكني لا زلت أطلب المال واللذة في حدود المشروع . لم يكن من السهل أبداً أن أبلغ هذه المرتبة من الجاه ، لو كنت قبلت أن أكون معيداً في كلية العلوم . كان يجب أن أتاجر في العملة ، تلك التي دفعتني بهدوء إلى مستويات مريحة . وأدخلتني أوكار اللذة لمزيد من هذه العملة وللتمتع أيضاً . كيف كنت سأعرف نوادي الميسر إن لم أكن أسعى وراء العملة أو يسعى أصحابها ورائي . وكيف كنت سأعرف أوكار الخمر والدعارة لو كنت لا أبغي بيع أو شراء العملة . كل طرق الرذيلة تؤدي إلى بعضها البعض .

يطرق الباب ليدخل على أستاذه .

– السلام عليكم .

وعليكم السلام . أين كنت يا سي صبري ؟

– قلت أترك لك الوقت الكافي لتطلع على نتاجي العلمي .

- عمل لا بأس به . لكن كتبت لك عدداً من المجلات العلمية عليك أن تقرأها .

- ذلك لأن هذه المجلات غير مسموح بالإطلاع عليها إلا في المكتبة ولا وقت عندي لمراجعتها في المكتبة .

- هذه المجلات يمكن تصوير الصفحات اللازمة لك منها أم أن ثمن التصوير سوف يضلع جيبك ؟ .. قلت لك أن تتقدم لوظيفة معيد حينما أعلن عنها فتكاسلت . كان يمكنك الآن أن تقرأها وتستعيرها وتطالعها على راحتك في بيتك .

- ظروفي لا تسمح أن أكون معيداً .

- وأظن بعد الدكتوراه ستقول أن ظروفي لا تسمح أن أكون مدرساً .

- الحقيقة لا أعلم .

يخرج الأستاذ ظرفاً به أوراق يقدمه له . ويناوله صبري ظرفاً كان يحمله .

- هذا جزء آخر كتبته .. ولكن سينقصه الإطلاع على هذه المجلات العلمية .

- لا .. خذه معك .. فأنا مشغول هذه الأيام بامتحانات نصف العام . وعلى ضوء المراجعة لهذه المجلات أرجو تصحيحه .

- شكراً يا دكتور .

ينصرف صبري إلى المكتبة . " إذا كان إيزاك ينتظر في المكتب ، فلينتظر حتى الصباح . لست موظفاً عنده . أنا مدير هذا

ينصرف صبري إلى المكتبة . " إذا كان إيزاك ينتظر في المكتب ، فلينتظر حتى الصباح . لست موظفاً عنده . أنا مدير هذا المكتب ولا أخضع لسلطانه .لا بد أنه قلق الآن . يدخن ألف سيجارة ويذهب ويجئ . ويسأل سليماً ألم يأت بعد ؟ .. لعله لا يعلم أنه لو قال لي أذهب إلى حال سبيلك ، فسوف أذهب على الفور لأؤثث مكتباً منافساً . وكل الزبائن سوف يأتون إليّ . وتكون قد جنت على نفسها براقش . "

يأخذ في تقليب المجلات في المكتبة . ويسلم أمينة المكتبة صفحات منها لتصويرها . هذه ميزة الذي يعرف حدود بحثه ويدرك أبعاده . يعرف كيف يضع إصبعه على ما سوف يفيد البحث ويعمقه . لم تتعلم ذلك بلا مقابل يا صبري . كنت في الماجستير تقرأ الكتاب من البداية إلى النهاية . أما الآن فأنت تعلمت كيف تبحث عن النقاط التي تخدم موضوعك في ثنايا الكتب .

ينصرف متجهاً إلى مكتب السمسرة . وحينما يدخل يتلقاه سليم بابتسامة صفراء ، كأنما يعلن بها مقتله في لحظة غمام . ويدلف المكتب ليجد إيزاك جالساً يتأفف :

– أين كنت يا أستاذ ؟

" لم تفقده غربته نسيان اللهجة المصرية . "

– كنت في مشوار هام .

– ألم يكن بيني وبينك ميعاد ؟ ..

-لا لم تحدد موعداً . ولم أتصور أنك سوف تأتي اليوم .
- ولكن المكتب له مواعيد ويجب احترامها .
- أنا الذي أحدد المواعيد ، وأنا الذي أعرفها .
احتد وهو يقول :
- ليس من المعقول أن تأتي بالأمس من إسرائيل ، وتعلمني في اليوم التالي كيف أعمل .
ثم يهدئ من أوتار صوته وهو يقول :
- انتظر يوماً .. أو يومين . ثم مارس هوايتك في التعليم .
يزحف الذهول إلى كيان إيزاك الرجل العسكري . وينهض قائلاً :
- إذاً حاول أن تجد لك عملاً في مكان آخر .

الفصل الرابع عشر
رحلة صحفية

أخذهـا مـن وسـط المحرريـن ، ليقـذف بهـا إلـى أصحـاب المستنقع .. تجار العملة الصعبة . طلب أن يتواري كلما أشار إلى ضحية من الضحايا . وأن تدخل لتجري حديثاً مع الضحيـة . فـي أول مكتبة شاهدتها تبيع المصاحف ومقاعد من الخشب للمصاحف والكتـب الدينيـة وأدوات نحاسـية ومعلقـات وتمـاثيل وتحـف . قال لها : هذا أول الكبار ، ولكنه تاب .

دخلت تحمل مائـة دولار تطلـب تحويلهـا إلـى مـا يسـاويها مـن قروش مصرية . قال الرجل ذو اللحية الطويلة البيضاء ، والوجـه المصري الأسمر ، والعينين ذاتي الجفنين السوداوين :

- لا .. لم نعد نشتري أو نبيع .

جلست كأنما تريد أن تسترسل في الحديث :

- ولكن سبق لي أن بعت من قبل لكم بل اشتريت .

قال الرجل بهدوء :

- لقد ضـاعت أو صـودرت ثـروة كبـيرة مـن هـذا العمـل . وصممت أن أقلع عن ذلك إلى أن يحين الأجل .

- لكـن ألا تعـرف مـن أيـن يمكننـي أن أحولهـا إلـى جنيهـات مصرية ؟

- المغامرون كثيرون .

يقف صبري ينتظرها في الخارج .. لا بد أن التحقيق الصحفي سوف يكسبها شهرة ، وسوف تحس كم أسديت لها من خدمة . يشعر أنها تعيش فيه كأنما ملكت عليه كيانه . كان من قبل ، في عصر المستنقع أو اللعب على المتناقضات ، يترفع عن النساء ولا يحاول أن يعقد معهن علاقات . وحينما هاجر ، وقع في غرام هذه الصحفية ألفت واكد . واصبح يتردد عليها بسبب أو بغير سبب . ورأى - حتى يكون جديراً بها - أن يفتح محلاً للسمسرة ليرتزق منه . ينافس به رفائيل مزراحي وابنه ايزاك . ظن الإسرائيلي الغبي أنني سوف أتضور جوعاً . لا يعرف أن على قلبي آلاف من الجنيهات . لك أن تحسبها يا ايزاك لقد كنت أدخر مائتين جنيه شهرياً على الأقل . وعملت لدى أبيك زهاء خمسة عشر عاماً . ولم اسحَبْ منها إلا منذ زمن قصير هذه المبالغ التي أثثت بها شقتي .. حتى تليق بعروسي القادمة .

تخرج من المكتبة منتصرة . طويلة ، رشيقة ، يتقدمها نهدان يندر أن تملكهما أنثى في هذا القرن الفقير في المواصفات . وأردافها غير مكتنزة . وقدماها طويلتان ولو أن الثياب الطويلة تحجبهما ، غير أنه يشعر بهما . لأول مرة يشعر بطيف أنثى يلعب بصدره .

ينضم إليها . ويسيران بين الحوانيت الصغيرة في داخل الشوارع الضيقة . ويشير إلى حانوت يبيع التماثيل الفرعونية المقلدة . حانوت واسع يقفان عنده . يقول لها :

- سوف أنتظر عند الحانوت المقابل .

تدخل تسأل من جديد عن تحويل مائة دولار أمريكي إلى جنيهات مصرية . يستقبلها رجل يبدو متأنقاً أكثر من اللازم . تسأله برهبة :

- أريد أن أحول هذه المائة .

يقول بسرعة :

- ضعيها في جيبك . العيون تراقب .
- أين هذه العيون ؟ ..
- فجأة . تجدينها قد هبطت عليك وأخذوها منك وتضيع عليك .
- وكيف إذاً أحولها ؟ ..
- يمكنك أن تمري علينا ليلاً .
- وكم يكون سعرها ؟ ..
- السعر معلوم .. ألا تعرفينه ؟ ..
- لا .. طبعاً .
- جنيهان وأربعون قرشاً .
- هذا فرق طفيف بين السعر الرسمي والسعر الحر . تضع المائة دولار في حقيبتها متصنعة الخوف من ضياعها وتسمعه يقول :
- بعد القبض على عدد من التجار هدأ اللعب قليلاً . لذلك تقاربت الأسعار

– وهل كان لديكم ضحية ؟
– نعم .. معلمنا الكبير . تم القبض عليه وأودع المعتقل .
– منذ متى ؟ ..
– منذ شهرين .
– ألم يكن يعرف أنهم يترصدونه فيأخذ حذره ؟ ..
– يبدو أن العملية نتيجة خيانة بين التجار .

يرتكز صبري على مكان قد تظلل بظل البيوت الصغيرة ، فخفت وطأة الشمس قليلاً . ورآها تخرج مبتسمة . وتقترب منه ، وقد حجب الحجاب الأبيض جبينها فأختفي الشعر الذي لا يدري ما إذا كان ناعماً أم مجعداً .. وبدت ملامح الوجه صافية .

– إلى أين الآن ؟
– سندخل في وكالة .. وسوف أتركك هناك لتصعدي سلماً حلزونياً ، يصلك إلى دكان صغير من دكاكين كثيرة .. صاحبه مليونير .
– هل هذا معقول ؟
– قد يكون قد أعتقل أو لا يزال يعمل . إنه ثعلب .

ويهمس لها باسمه .

ودخلت الوكالة . بينما جلس عند مقهى طالباً فنجان قهوة . ودخلت لتواجه درجاً وصعدت منه إلى الدور الأول وبدأت الظلمة تحل بالمكان . وفي الدور الثاني كان الظلام كثيفاً . لم يزحه إلا دخولها إلى دهليز طويل تطل نافذته على الشارع . وفي الجانب

الأخر منه دكاكين صغيرة كثيرة لإعداد البراويز وأدوات المكـاتب الصدفيـة والنحاسـية . وفـي نهايـة الدهليز رأت الدكـان الموعـود مغلقاً .

أخـذ صـبري يحتسـى القهـوة عنـد المقهـى وقـد مـدد قدميـه الطويلتيـن علـى الرصيـف . حينئذ دنـا منـه شـخص ومـال عليـه وهمس : الخواجه مزراحي يريدك .

نظر إليه بإمعان وسأله :ومن قال لك ؟

قـال الشـخص بهمـس : جمعنـا .. وطلـب منـا أن نبحـث عنـك ونخبرك عن رغبته في رؤيتك .

قال بهدوء : قل للخواجه .. حينما يغادر مسيو إيـزاك القـاهرة عائداً إلى بلده فسوف يتصل بك . فلا يصلح لإدارة مكتبه نفران . الدفة لا يمسكها إلا واحد فقط .

ينسـحب الشـخص ، بينمـا ألفت تـنزل ممتقعـة الوجـه مـن أثـر الظلام الكثيف على السلم وتبدو آثار الخيبة على وجهها . حـاولت أن تجـري حديثـاً مـع العـاملين فـي المحـلات الصـغيرة المجـاورة للدكان المغلق ، غير أنها لم تظفر إلا بنظرات ساخطة .

لم يكن خان الخليلي بعيداً عن شارع الجيـش ، فـأصرت ألفـت أن يصلا معاً إلى البيت ، لعل والدها واكد يهنأ برؤيته .

الفصل الخامس عشر
مقاومة الشر الكبير

تقيم مأدبة غداء في ساعة واحدة . يجد أن المائدة عامرة . . باللحم المتبل بالليمون والبصل والفلفل والملح ، وقد ظهر على المائدة في شكل وردي ، يكاد يقول للجالس إلى المائدة ، مد يدك والتهمني . وهناك بجانبه المكرونة الممزوجة باللحم المفروم وقد دخلت الفرن ونضجت بداخله وأصبحت مستعدة لأن تؤكل . ولحوم أخرى في طبق آخر ثم لون من الخضراوات المطهية . ويضاف إلى ذلك أنواع مختلفة من السلاطة وفاتحات الشهية . ما هذه المهارة ؟ .. إن إعجابه يزداد بها ، ويزداد من حلاوة وطلاوة حديثها . تتكلم ويجدها حافظة لآيات الله البينات ، تستعين بها في تأكيد ما تقوله . إنها لم تتحجب كلياً ، وتعيش حالة من الإيمان قوية . ما أجمل أن تكون تلك الفتاة زوجتك ! .. لكن يجب أن يشعر أنها تميل إليه . إنها تعامله حتى الآن كرجل مغوار أنقذ والدها من ورطة محققة ، ومرشد مستقيم يرشدها إلى مجالات تكتب عنها وتدعو الناس إلى مقاومتها . يجيء اسم المقالة في ذهنها وهي تأكل " توبة تجار العملة الصعبة " ، عنوان رائع تخبرهم به فيدعون لها بالتوفيق بعد أن استحسنا العنوان .

لكنه لا يهنأ بالجلوس معها بعد أن ينتهي التهام الصحف كلها . ما كادت تدخل لإعداد الشاي حتى سمعوا دقاً على الباب ، ففتحت فوجدت زميلات لها كلهن محجبات . جئن ليتدارسن معها في

حقوق المرأة في الإسلام . كل واحدة منهن سوف تقرأ بحثاً في موضوع معين قامت بالتعمق في بحثه . وفي نهاية المطاف سوف تصدر البحوث أو المقالات في كتاب .

يطلب منه واكد أن يدخلا معاً إلى حجرته لأن البنات سوف ينفردن بحجرة الجلوس . وما يكاد صبري يدخل الحجرة حتى يصاب بالانبهار . يشاهد أنواعاً مختلفة من الدروع والأسلحة معلقة على الحوائط . مسدسات صغيرة . بندقيات لاصطياد الغزلان . خناجر يمينية هدايا من كبار أهل اليمن . يسأله :

– ماذا كنت تعمل ؟

– كنت أحد حرس الرئيس السابق الخاص أو بالأحرى أحد حراس الرئيس .

– هل شاركت في تعذيب الناس ؟

– وما علاقتي بالتعذيب . أنا ألازم الرئيس في كل تجوالاته . كنت أرافقه داخل البلاد وخارجها . أنام بالقرب منه . وأمشي ملتصقا به . ولعل الفترات القليلة التي كنت فيها بمفردي كنت أنطلق للعب الميسر . كنت ألعب وأنا في الخارج . في نوادي الفنادق الكبرى أو على موائد خضراء . كنت ألعب الروليت ، والورق ، وألعب مع شخصيات كبيرة وحقيرة . وأدمنت هذه العادة السيئة .

– لكن أريد أن أسألك سؤالاً صعباً . اسأله دائمـاً لنفسـي . هـل كان الرئيس يعلم بأن المعتقلين فـي السـجون يعذبـون هـذا العـذاب الشديد ؟ ..

– لا شك أنه كان يعرف .

– وكيف لم يمنع ذلك ؟ ..

– يمكنك أن تسأله .

ضحك صبري وهو يقول :

– كيف أسأله وهو ميت وابتلعه التراب .

– هذه أمور من الصعب الحكم بها .

– أتدري أنني وقعت في مـأزق ، وخرجت منـه وقـد صممـت على أن أكافح الظلم في كل مكان .

– الإنسان وحده لا يمكن أن يكافح الظلم أو الشر أو الحرام أو الرذيلة . يجب تضامن الجميع لأن الإنسان وحده يمكن أن يعصـر وينتهي . إنه يلقي بنفسه إلى التهلكة . أما الكل فمـن يجـرؤ علـى عصـر شـعب بأكملـه أو سـفك دمـه . هـذا مـا علمتنـي الحيـاة مـن دروس .

– وكيف يقوى شعب على مقاومة الظلم إذا كان خائفاً ذليلاً فقيراً ؟

– الحقيقة شغلتني تلك القضيـة كثيراً . ووجـدت أن الحـل فـي تضامن الشعب فـلا شـك أنـه بالتضـامن يمكنـه أن ينقذ نفسـه مـن الظلم ويطرد منها الشر ويسحق الرذيلة ويبيد الحرام . فمثـلاً هـذه

الأحزاب التي لا عمل لها لو قامت بتعليم الشعب وتثقيفه والعمل على علاجه بأجور رمزية وإيجاد المأوي ولو حتى لأعضائها فقط وكذلك فرص العمل الجيدة . فإن الشعب سوف يزدهر ، ويصقل معدنه ، وسيخشى الحاكم المستبد من هذا الشعب المتعلم المثقف المناضل في سبيل استرداد حقوقه . يجب أن يصحو الناس كلهم صحوتك ، ولا يكل واحد منهم وهو يترقى . يجب علينا جميعاً أن نسعى للترقي وذلك سوف يمنع أي حاكم من الاستبداد . يجب علينا جميعاً مقاومة الشر الكبير معاً .

ينظر صبري إلى الأسلحة المعلقة على الحوائط في نظام بديع . ويتذكر العصابة التي اعتقلته وضربته واستطاع الفرار منها بأعجوبة . ماذا لو أقترض سلاحاً واحداً من الأستاذ واكد وراح يبحث عنهم وأخذ يفرغ في قلوبهم الرصاصات . لكن سمع نفسه تقول : سوف تتحول في هذه الحالة إلى مجرم . ويضيع عليك ما جنيته في هذا العمر الطويل .

لم يبق طويلاً ، كانت جلسة البنات قد امتدت ، وفقد الأمل أن تصرفهم ألفت إلى وقت آخر وأن تجالسه بعد ذلك . يستأذن ويخرج وفي قلبه شوق لرؤياها ، وأمل أن يعود .

الفصل السادس عشر
العيون لا تري في الظلام

"لم يريد أن يقابلني ذلك اليهودي العجيب ؟ .. ألم يفضل ابنه الذي لا يفقه شيئاً في أعمال السمسرة والبورصة الدولية عليّ أنا الخبير بذلك كله ؟ .. ثم أنا لن أعود إليه مرة أخرى .ولكنك ذاهب إليه بقدميك و لم يجبرك أحد . ألم يرسل في طلبي .لكنك كنت تأبى ذلك . إن البخل لا يزال يلازمك ، لا تريد أن تنشئ مكتباً جديداً فتتكلف مالاً أكثر من اللازم وتظن أنه قد يعيدك إلى العمل فتكسب ما كنت تنوي أن تفتتح به المكتب الجديد "

توقفت السيارة الأجرة أمام الفيللا . ونزل منها متجهاً إلى الباب . فتحه وكان من الممكن فتحه فالبواب لا يخوّن أحداً وليس له أعداء ولا حتى صاحب البيت رغم أنه يهودي لكنه يعيش بين الناس دون أن ينظروا إليه من خلال دينه . ورآه يحلق على جمع من الدجاج هرب من حظيرته . وسأل : الخواجه بالداخل . أجاب : أهلاً .. ومد يده يصافحه ويقول : تفضل . إنه جالس في الحديقة خلف البيت مع ابنه .

ورآهما يحتسيان كوبا شاي . ونهض الخواجه مزراحي بتثاقل وصافحه بفتور . ثم حياه ابنه إيزاك وهو يجلس دون أن يمد له يده . تأمل وجهه ليعرف أوجه التشابه بينهما . غير أنه أدرك أنه كان يشبهه – ربما – في مقتبل عمره . أما الآن بعد أن برز اللغد

وتهدل الخدين ، وغطى اللحم الجفون ، ونحل الشعر فقد اختفت أوجه التشابه بينهما ويعتقد أن لا صلة له به .

قال الخواجه : لم تركتنا ؟ ..

قال بهدوء : ابنك طردني .

قال الخواجه : أنا صاحب المحل .. أنا الذي أفصل وأعين . كان يجب أن تأخذ أوامرك مني .

قال بهدوء : وماذا تريد الآن ؟ ..

قال وإيزاك يتفرس فيه : أريدك أن تعود إلى عملك .

قال ببرود : لا أستطيع . أنت تعرف المثل الشعبي إن السفينة التي بها رئيسان تغرق . وأنا لا أريد أن أكون سبباً في بوار أعمالك .

قال الخواجه مزراحي : أنا أشرت إلى إيزاك أن يعود يا زكي . يعود إلى إسرائيل . وأريدك أن تعود إلى العمل . سوف أذهب إلى إسرائيل شهراً أو شهرين . وتدير أنت المحل هنا .

" أخيراً آمن أن يعطي الخبز لخبازه ! .. "

يصافحه وهو يقول : وهو كذلك .

ويمضي . لا يطلب منه الخواجه أن ينتظر ليشرب الشاي . ويحاول الحارس أن يمسك فيه ، ويدعوه إلى كوب شاي غامق ، غير أنه يقول له : مرة أخرى .

وينتظر عند الترعة سيارة أجرة تقله إلى شارع الهرم . في الصباح لا يمكن للعصابات أن تقطع الطريق . أما في الليل

فالعيون لا ترى في الظلام لذلك يهاجمون الناس تحت ستر الظلام . كم تهيأ أنه يرتدي لهم تلك الدروع التي رآها في حجرة المقامر التائب ، ويحمل تلك الأسلحة ليحارب بها قطاع الطرق .لكن تلك كانت خيالات سقيمة . وإذا حدث أن اصبح الخيال حقيقة فلن يتحمل لكمة واحدة . لقد هرب من حظيرة الحيوان لدى العصابة بهدوء ولو أمسك به واحد منهم لكان الآن في عداد الأموات . أتراهم لا يزالون يقطعون الطريق ؟ .. ولم لم يبدأ بهم ويرسل بلاغاً إلى النائب العام بشأنهم كيف فاته ذلك ؟ .. إن مجرد الإخبار عن مكان وقوع الجريمة كاف ، فسوف تترصدهم الشرطة في ذلك المكان ويتم القبض عليهم . لا أهمية للوقائع ولا أسماء المجرمين . إن الحادثة تلازمه كظله ، يبدو أن الأمر كابوس مقيم لا يتمكن صاحبه أن يستيقظ فينقشع ظله الأسود أو يفكر في شيء آخر وينتقل إلى حلم جديد فيختفي الكابوس .

ويتذكر وهو يركب السيارة تلك الدار التي تستقبل العجائز وتمنحهم اللذة المحرمة . كيف نساها ؟ .. إنها قريبة من أول الشارع .. ليتوجه إليها عساه أن يعرف ما إذا كانت لا تزال قائمة أم أن المرأة صاحبتها أغلقتها أم أن الشرطة هاجمتها وشمعت أبواب الدار بالشمع الأحمر .

استغرب أن تكون الدار على قيد الحياة ، والمرأة لا تزال تمارس حرفتها السافلة . لقد استقبلته بابتسامة عريضة . لا تزال

تذكره . بل قبلته فـي الوجنتيـن ، وقـالت لـه : ابـن حـلال . هنـاك امرأة تنتظر في الحجرة الأولى مـن الجـانب الشـمال . أدخـل بهـا وسـوف أجـزل لـك العطـاء . إنهـا أول مـرة تـأتي إلينـا ولابـد أن نكرمها بفتى عفي مثلك وفي عنفوانه .

لا يدري كيف قبل ، كان يريد أن يدعو المرأة التي على وشـك السقوط أن تتوب وتبرح الدار وهى لا تـزال طـاهرة . وكـان مـن العادة أن يدخل الحجـرة ، وكـل سـتائرها تحجـب الرؤيـة ، وغـير مصرح أبداً أن يضئ الأضواء ، وأن يقضي وطره مع العجوز ثم ينصرف دون أن يراها أو تراه . . غير أنه في هذه المرة خالف التعليمات . وأضاً الحجرة . رأى أمامه امرأة تخلع ثيابها وشـهقت حينما رأته وأدركت أن التعليمات لا تنفذ . وتخالف . لقـد وعدتهـا المرأة ألا يراها أحد ولا ترى أحداً . وكل شيء يتـم فـي الظـلام . الستار الوحيد الذي يعمي العيـون بشـرية كـانت أو غـير بشـرية . وصرخت : من إيزاك ؟ .. لطمها على خدها وقال : يا عاهرة .. أنا ابنك ! .. ارتدي ثيابك وهيا معي . لم يكن ينوي أن يدخـل بهـا كان يريد أن يثير الفوضى في هذه الدار المأفونة . لقد اتخذ عهداً على نفسه أن يحارب الفساد في كل وقـت وفـي كـل مكـان ..دون هوادة . ارتدت عديلة هانم مرعي ثيابها على عجل ، وقلبها يخفـق بشدة ودست قدميها في الحذاء وقد تملكتها رعشة قاتلـة وانتفاضـة في كل عضلات جسدها ، وهو يشدها مستعجلاً ، ويدفعها أمامه ، وتندفع أمامه في ذلة ومسكنة .

كـانت صاحبـة الـدار تدخـن سـيجارتها ، ففزعـت حينمــا رأت المرأة ذات الشعر المصبوغ والربيـع الغـائب والخريـف المسـيطر تجري إلى باب الخروج والفزع في عينيها . وصبري يدفعهــا فـي كتفها بشدة ، وهي خاضعة لا تتمرد ومنساقة أمامه في ضعف .

مفاجأة غير سارة ..لكنها حدثت . ماذا كان سـيحدث لـو أختـل عقله واندفع في أحضانها ! .. لا .. لم تكن لديـه النيـة أن يرتكـب موبقة .

نادى سيارة أجرة ، والمرأة طوع بنانه ، والخزي يملأ وجهها اصفراراً . دخلت السيارة علـى عجـل كأنهـا تسـتر نفسـها فيهـا . وركب بجانب السائق ، لم يطق أن ينظر فـي وجههـا لوأنـه جلـس وهي بجواره . ولم تسـأله إلـى أيـن ؟ .. ابنهـا وليعاقبهـا كيـف مـا يشاء وبما يجب ! .. فليطهرها كيف مـا يريـد ! .. العـار يلاحقهـا منـذ أن فكـرت أن تجـاري غوايـة هـذه المـرأة . أغرتهـا بـاللذة والمتعة اللتين تتما في الظلام وتمكنت الأيام من حرمانها منهما . ولم تفكر لحظة أن سرها قد ينكشف أو أن الشرطة تداهـم الـدار . قضية دعارة سوف تغوص في أوحالها . ألـم تـتزوج مرتيـن ؟ .. ألم يكن في ذلك كفاية ؟ ..

وشاهدتها الدادة تدخل وهو لا يزال يدفعها . وقال لها يأمرها : أدخلي هذه الحجرة ولا تخرجي منها . لا أريد أن أراك الآن . ثـم أردف بعصبية : لا أريد أن أراك حتى لا أتذكر فعلتك الشنعاء .

كانت جامدة في مكانها ، لا تدري كيف تتصرف ، العار يقبض على قدميها ويمنعها من الحركة . وتوجه إلى مبروكة وقال لها :

- لا تدعيها تخرج من الشقة ولا من الحجرة إلا لقضاء حاجتها فقط . وقدمي لها الطعام ثلاث مرات في اليوم في حجرتها . سوف أقفل الباب بالمفتاح سواء كنت موجوداً أو في الخارج . لا أريدها أن تبرح الشقة . وكاد يقول : حتى لا يلاحقني عارها . غير أنه عض لسانه ليسكت .

دخل حجرته ليكتب بلاغين . بلاغاً إلى النائب العام يروي فيه قصة قاطعي الطريق الذين فر منهم . وبلاغاً آخر إلى مأمور شرطة الهرم عن الدار التي تمنح العجائز اللذة المحرمة . ثم وجد أن المأمور قد يكون أسرع من النائب العام بشأن قطاع الطرق فأرسل له صورة من البلاغ الأول وصورة إلى النائب العام بالبلاغ الثاني . ووقع عليهما المنتصر بالله منصور . أسم جديد لاح في خاطره .

الفصل السابع عشر
المدمن المطرود

ما كاد ينتهي من كتابة البلاغين حتى سمع دقاً على الباب . ظن أن أمه تريد أن تخرج . غير أن حجرتها كانت مقفلة عليها ، وسمع نشيج بكائها على نفسها ، ومربيته تواسيها . فأتجه على الفور إلى باب الشقة ليشاهد هذا الذي يطرق الباب بشدة كأنما يبحث عمن ينقذه من مأزق . ووجد أمامه صديق عمره .. يلهث . الرجل الذي تحول عبداً لامرأة ، جعلته يعاقر الخمر ، وينزلق إلى هاويتها ، وحاول أن ينتشله من المستنقع ، غير أن إرادته شلت ، وها هو الآن يطرق بابه يبدو أنه يريد أن يهجر المستنقع . لعله جاء يستنجد بالمهاجر الأول .

- ما بك ؟

- خذني إلى مستشفى . ارحمني . أريد أن أتطهر من الخمر . لقد أصبحت لا أفيق . وطردتني العجوز الشمطاء حينما أصبحت لا أساوي شيئاً . أصبحت غير قادر على إمتاعها . لن يتسنى لي أن أفلت من قبضتها إلا إذا انتهى الإدمان تماماً .

- وكيف عرفت مكاني ؟ ..

- سألت في بيتك القديم في شارع محمد علي .. دلوني على ذلك العنوان . كانت مربيتك قد تركته لديهم .

" ألا سحقاً لها . إنه نبه عليها أن تتكتم الأمر . "

وبالصدفة خرجت أمه من حجرتها لتغسل وجهها من أثر البكاء على حظها العثر ، فرأت صديقه فتضطر إلى مصافحته ، ويضطر أن يعرفه بها .

وجلس مضعضعاً يهرش يديه بشدة ، ويحاول أن يتوازن ، غير أنه كان يميل ويتمايل . وحينما رآها تأتي لتجلس معهم كأن الأمر عادي ولم يصدر منها أي عيب ، فزع صبري ، وصاح فيها : ادخلي حجرتك . دخلت حجرتها على الفور منصاعة لأوامره . كانت ضائعة وأحست أن ابنها انتشلها من الضياع ، فلم تتردد أن تطيع أوامره ، حتى لا تعود إلى بحر الضياع الغريق من جديد .

***

لم يتأخر في أخذه في سيارة أجرة إلى المستشفى لعلاجه من الإدمان . لقد كان رأفت أحد الذين عرفوه بمصدر رزق ، ولو أنه غير شريف . ولا يمكن أن ينسى أنه انتشله من حفرة فقر متوقع مدقع ، ولو أن مصدر المال الذي وقاه من الفقر حرام . وعلمه أن يلعب على المتناقضات . فشل رأفت أن يستمر في الأسلوب الذي أخترعه لمواجهة الحياة ، ونجح صبري في الأسلوب بجدارة . ولكن في الختام خرجا الاثنان من عالم المتناقضات . الأول منهار تماماً والثاني سقيم الوجدان . يدخل الطبيب عليه في حجرة

الاستقبال ويقول له بثقة : صديقك يحتاج إلى علاج طويل .
وتكاليف العلاج باهظة .يرد قائلاً: لا أهمية .. يجب إنقاذه .

الفصل الثامن عشر
أصابع الزامر

نظر إليه بخجل وهو يقول :

- أنا خجلان منك . لا تتصور ما أعانيه من ألم ..

قال ضاحكاً : وما السبب ؟

- لقد تجشمت من أجلي هذه المبالغ الطائلة من المال لشفائي .

سمع صوت أمه يقول : أنتما أخوان . لا تقل ذلك .

فتح لها الباب بعد أن اطمأن على أنها ستكون ذات سلوك مقبول . بل أخذها معه عدة مرات لزيارة رأفت في المستشفى أثناء علاجه .وعرفت أن رأفت صديق شبابه . وجاءت معه في ذلك اليوم مدعية أنها تريد أن تشم الهواء ولو في مستشفي . وحينما وجدته متجهاً لعيادة صديقه صاحبته فلم يرفض وقد أطمأن إليها . وقد وجد في الزيارة ترفيهاً عن نفسها المكروبة . لقد أدرك أن الألم لا يفارقها منذ وجدها في بيت العجائز المتصابيات .. تستدر المتعة من الصبايا . وحمد الله أن أنقذها قبل أن تنزلق قدميها إلى المستنقع .

استبشرا خيراً أن رأياه قد تعافي حتى السجائر لم يعد يدخنها .

- أتدري .. أشعر الآن كأني إنسان جديد .. لا ثقل في رأسي ولا ألم في الصدر .. ولا شيء من الحزن يجثم على النفس .

- مبروك .. مبروك .. ألف مبروك .

نظر إليها . لا يمكن أن تكون أم هذا الرجل . لا بد أنها تزوجت في سن مبكرة . تبدو داخلة في الخمسينات .. بل لو كانت قد تزوجت في سن البلوغ لكانت الآن في السابعة والأربعين لكن الغريب أنها رشيقة رشاقة بنات البلد . ولو أن السمنة زحفت ببطء إلى ردفيها وذراعيها . ونظرت إليه وتمعنت في وجهه الأسمر . وقد فاض بالبشر وتلون بلون الصحة . هل هذا كان مدمناً..للخمر والدخان . إن الطب في ذلك الزمن يصنع المعجزات . يبدو أنه أكبر من ابنها قليلاً ، ولكنه رجل فحل ، ولو أن الخمر كانت قد امتصته . يقول ابنها أن وجهه الهضيم أختفي وحل ذلك الوجه النضر بدلاً منه .

قال : الطبيب قرر خروجي .. ولا أدري أين سوف ألجأ .. لا عمل لي .. ولا مصدر رزق .. ولا مكان أبيت فيه .

قالت عديلة هانم بثقة :

– بيت أخيك مفتوح ..

قاطعها قائلاً :

– إن الصداقة التي بيننا لا تتحول أبدا . سوف تأتي عندي في شقتي الجديدة .. هناك حجرة مستقلة لك فيها ..وحتى تجد عملاً ومسكناً أنا متكفل بك .

كاد الدمع يتساقط من عينيه لو لا أنه حجزه عنوة وهو يقول وغصة تتلاعب في حلقه :

– هذا كثير .. لا استحقه .

ربت عليه وهو يقول :
- غداً .. سوف آتى لأخذك .
قالت : إن زوجي السابق مات وورثت عنه محله التجاري .. كان محلاً للجزارة .. فما رأيك لو عدت تفتحه وتحوله إلى محل تجاري . وتكون أنت مديره .
" هكذا كل النساء كاذبات . كيف إذاً ادعت تلك المرأة أنها باعت المحل . وأنها تريد أن تشتري من ثمنه أسهماً وسندات . يوم جاءت إلى مكتب مزراحي للسمسرة في أول لقاء بعد خمس عشرة سنة ."
قال رأفت بضعف :
- الأحلام لا تصنع شيئاً .. كيف أستطيع أن أفتتح محلاً وأنا لا أملك مالاً .
قالت بثقة :
- لا تحمل هماً .. المال عندي .. أقرضك إياه وبعد ذلك تسدده كلما ربحت .. وما عليك إلا أن تبدأ في إعداد المحل .
سأل : وأين يقع المحل ؟ ..
قالت : في العباسية .. في شارع عشرة .
- ولكنه بعيد ..
- حتى لا تكسر مجاديفك . فإن لي شقة لا تزال محجوزة باسمي .. أدفع إيجارها .. تقع بالقرب من المحل . يمكنك أن تقيم فيها . أؤجرها لك من الباطن .

- ألا تحتاج هذه الشقة إلى أثاث ؟
- بها كل ما تشتهي الأنفس .
- إذاً لقد خففت عني كل شيء ..
- وإذا كنت تريد شيئاً آخر فأنا تحت أمرك ..

ارتبك وهو يقول : ماذا أريد بعد ذلك .. محل وشقة مجهزة ومال لأبدأ به .. ما هناك ؟ ..

قالت : فكر أنت .. وأنا تحت أمرك .

لم يغضب صبري من الحديث ، فقد كانت الأم الرؤوم تتفتق لتخرج من ثياب أم تسعى للمتعة .

***

حينما عادا معاً إلى الشقة ، واختلى بأمه وسألها : كيف قلت لي إنك بعت المحل الخاص بالمعلم كرشة .. وتقولين الآن أنه لا يزال في حوزتك ؟ .. قالت : لم أكن أعرف من أنت . وكنت أظن أنك قد تطمع في مالي لذلك أخفيت عنك الحقيقة .عاد يسألها
- ومن أين كانت لك تلك الدولارات التي كنت ترغبين في بيعها ؟
قالت : إنها كانت صفقة أتممتها حتى أودع الدولارات في المصرف فتأتيني بأرباح طائلة ، لكن بالحساب عرفت أن الأرباح ستكون ضئيلة . فقررت بيعها واشتري بها أسهماً ، فضلت أنت أن أشتري بها شهادات استثمار . قال محتداً : أنا أسأل من أين أتتك النقود. قالت : بعت عقاراً كان مملوكاً للمعلم كرشه ورثته عنه .

جاء رأفت إلى البيت ليبيت فيه ، ولكنه في صباح اليوم التالي خرج مع عديلة هانم ليشاهد المحل على الطبيعة ويقرر أي تجارة سوف يمارسها هناك . ويتفرج على الشقة التي تركتها عقيلة دون سكني .

وترك صبري الشقة ليذهب إلى محل مزراحي لمباشرة عمله بعد أن سافر ايزاك ومزراحي إلى إسرائيل . هناك يقف سليم وقفته العسكرية وقد خلى وجهه من الابتسامة الصفراء الشامتة . عرف أن المجد عاد من جديد إلى زكي الشهير بايزاك .

***

في ذات يوم عاد ليلاً إلى شقته ، ووجد على المنضدة ورقة مكتوبة ، فض الورقة المطوية وقرأ ما فيها :

عزيزي صبري

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته . لقد قررت أنا ووالدتك الارتباط معاً برباط مقدس ألا وهو الزواج على سنة الله ورسوله وسوف نقيم معاً في شقة العباسية . وتركنا الشقة هنا حتى لا نسبب لك أي منغصات أو مضايقات . والسلام ختام .

أخوك رأفت

أخي . الكلب . لا . الثعبان . بعد أن أكرمته يسطو على عرضي . ولكن ذلك ليس بزنا ، ذلك زواج على سنة الله ورسوله . زير عجائز . لم يكتف بالعجوز التي امتصته وألقت به عظاماً . وبعد أن داويت العظام حتى اكتست لحماً طعنني . هذه

ليست طعنة . الفتي يتصرف لإنقاذ حياته . إنه مهما كان زامراً في عالم العجائز . وحينما يموت الزامر تجد أن أصابعه تلعب . وها هي أصابع الزامر تلعب من جديد وكانت رميماً . وهذه الكلبة ألا تكتفي برجلين .. تحاول أن تقتنص رجلاً جديداً وأصغر منها .. هكذا النساء اللاتي يموت أزواجهن ماذا يفعلن ؟ .. لا تريد رجلاً كبيراً حتى لا تتحول إلى خادم أو ممرضة . وتسعى إلى الرجل الشاب حتى يعيد لها الشباب ، مثلما يتزوج الشيخ صبية حتى تعيد له الشباب المفقود .. أوهام لكنهم يجرون وراءها وتجري النساء أيضاً وراءها . والآن حان الوقت أن أذهب إلى اتخاذ إجراءات زواجي .

لم تفتح الباب كما كان يتوقع ، إنما فتحه أبوها .. أين هي ؟ .. ألا تزال تعمل في الجريدة .؟

تلقفه الأستاذ واكد في أحضانه سعيداً بحضوره . وجلسا معاً في حجرة الاستقبال . وأستأذنه أن يعد له شاياً .

حينما جاء يحمل الصينية عليها كوبان من الشاي الغامق ، بادره متسائلاً :

– أين ؟ ..

قاطعه قائلاً :

– لقد عاد زوجها من الخارج في إجازة .. وذهبت إليه في شقتهما .. وتركتني وحدي .

– لكن يدها كانت خالية من الدبلة .

– كانت تعتبرها تقاليد غربية لا يجوز أتباعها .. هكذا بنات اليوم المتحجبات .. لا يتبعن إلا ما قرره الإسلام ودون ذلك بدعة .

يقول والغيظ يغير من صوته :

– كنت طوال هذه الفترة أظنها آنسة .. لم تتزوج بعد ..

– من أجل ذلك كنت أطالبها بوضع الدبلة في إصبعها لكنها كانت ترفض .

" هاجرت من المستنقع لأدخل الفردوس ، لكن ها هو بابه مغلق . يبدو أن إقامة الجنة ليست أمراً سهلاً ، نخرج من النار لا نجد الجنة أمامنا . يجب أن يجاهد الإنسان حتى يقيمها ويسكن فيها بعد ذلك . وما على إلا أن أبحث من الآن على من تساعدني على أن نقيم الفردوس معاً . "

الرياض في ١٤ /١٠ / ١٩٩٧

قائمة أسماء مؤلفات الدكتور إيهاب سلام

اللقمة في يد النساء	١٩٧٧
بذور	١٩٧٨
وقائع غير مرئية تحت الشمس	١٩٨٦
لآلئ الزمن الخالي	١٩٨٧
خذ الحذر	١٩٨٨
غالباً ما يتفتح الزهر	١٩٨٨
السفر إلى زمن ميت	١٩٨٩
بعد فوران الحمم	١٩٨٩
الدكاكين الصغيرة	١٩٩٠
لو أعلنت الحقيقة	١٩٩١
نفحات من العطر المعتق	١٩٩٢
الجري وراء الأهواء	١٩٩٣
العودة إلى الحياة	١٩٩٣
انقلاب في الثلاثين	١٩٩٤
ما زلت أتألم	١٩٩٤
الميراث	١٩٩٦
المصيدة الكبرى	١٩٩٧